وطن الفراعنة

مُثل من الشعر القومي

أحمد زكي أبو شادي

وطن الفراعنة

مُثل من الشعر القومي

تأليف
أحمد زكي أبو شادي

هنـــداوي

وطن الفراعنة

أحمد زكي أبو شادي

الناشر مؤسسة هنداوي سي آي سي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

٣ هاي ستريت، وندسور، SL4 1LD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ٨٣٢٥٢٢ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي سي آي سي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: عبد العظيم بيدس.

الترقيم الدولي: ٠ ١٨١٢ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

جميع الحقوق الخاصة بالإخراج الفني للكتاب وبصورة وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي سي آي سي. جميع الحقوق الأخرى ذات الصلة بهذا العمل خاضعة للملكية العامة.

Artistic Direction, Cover Artwork and Design Copyright © 2019 Hindawi Foundation C.I.C.
All other rights related to this work are in the public domain.

المحتويات

مقدِّمة الكتاب	٧
النِّيل	٩
الصحراء	١١
الفلَّاح	١٣
راعي الغَنَم	١٥
حياةُ الرِّيف	١٧
قنال السويس	١٩
رأس البر	٢١
عيد النَّيْرُوز	٢٣
الأهرام	٢٥
أبو الهَوْل	٢٧
ليالي رمضان	٢٩
وادي الملوك	٣١
أنس الوجود	٣٣
معبد حاتاسو	٣٥
الكرنك	٣٧
الرامسيوم	٣٩
خرائب سقَّارة	٤١

قلعة صلاح الدين ٤٣
طُور سَيناء ٤٥
تمثالا ممنون ٤٩
فصلٌ ختاميٌّ ٥١

مقدِّمة الكتاب

جَمَعَني بطائفةٍ من أفاضِلِ الأُدباء مَجْمَعٌ جرى فيه الحديثُ عن المؤلَّفات الدِّراسية الحديثة، وعن أثَرِها الْمُفيد في تهذيب النَّشْء، وعمَّا لا يَزالُ يَنقُصُ النهضةَ الدِّراسيةَ من التأْليف الشِّعْري الذي يَبُثُّ الرُّوحَ الفَنِّيَةَ قدْرَ ما يَبُثُّ الرُّوحَ القَوْميةَ في النُّفوس، فاقْتُرِح عليَّ سدُّ هذا الفَراغ بِمِثْل هذا الكتاب، ولكنِّي ما أَقْدَمْتُ أخيرًا على تَلْبية هذا الاقْتِراح إلَّا شَغَفًا بموضوعِه، لا ثِقةً بإمكاني التامِّ، فهو جُهْدُ الْمُقِلِّ الْمُوَزَّع الخاطِرِ، ولكنَّه جُهْد الْمُخْلِص أيضًا، وحَسْبي ذلك عُذْرًا وشَفيعًا. وقد آثَرْتُ الإنشاءَ والتجديد فيمَا وَقَع عليه اختياري، ولم أَقْتَبِسْ من سالِفِ نَظْمي شيئًا في هذا الكتاب الذي أَعْدَدْتُه للناشئات والناشئين في المدارس الثانوية.

وحُبًّا في تقسيم الفائدة تقسيمًا مناسبًا، قد جزَّأْتُ الكتابَ إلى ثلاثة أجزاء، متدرِّجًا في الموضوعات والأساليب، وقد راعَيْتُ الإيجازَ الْمُجْدِي، كما راعَيْتُ السَّلاسةَ في التعبير؛ فهي أَوْجَبُ ما يكون في مثلِ هذا التَّأْليف، تَسْهيلًا للحِفْظ، وتَشْويقًا إلى الموضوع.

ورجائي أن أَكونَ قد توفَّقتُ بهذا الكتاب إلى إسْداءِ بعضِ الخدمةِ الوطنيةِ الواجبةِ في مجالِ التأليفِ الدِّراسي، تثبيتًا للحكمة الخالِدة: «حبُّ الوطنِ مِن الإيمان.»

أحمد زكي أبو شادي
١٩ يناير سنة ١٩٢٦

النِّيل

يَجْري بماءِ حياتِنا وحياتِهِ ... فكأنَّما صِرْنا سَرِيَّ[1] نَباتِهِ!
مِن مَوْجِه يُوحَى خُفوقُ قُلوبِنا ... ودِماؤُنا مِن لونِه وصِفاتِهِ
لولاهُ كانتْ «مصرُ» قَفْرًا قاحِلًا ... وبهِ تَرَى الجَنَّاتِ مِن جنَّاتِهِ!
يَجْري بغالي الرِّزْق جرْيَ موفَّقٍ ... للبِرِّ لا يَمْتَنُّ من حسناتِهِ
وسخاؤُه يأْبَى الرُّجوعَ لبذْلِهِ ... فيَذُوقُ مِلْحُ البحرِ عذْبَ فُراتِهِ
حتى الهواءُ فلُطْفُهُ من جُودِهِ ... حتى النَّسيمُ فطَبْعُه من ذاتِهِ[2]
وتَرَى الْمُرُوجَ يَمِينَه وشِمالَهُ ... صُوَرَ الجمالِ حنَتْ على مِرْآتِهِ!
أو كالعَساكر في عمائمِ قُطْنِه ... رفَعَتْ تحيَّتَها على راياتِهِ![3]
مُخضَرَّةً بأَهِلَّةٍ من زَهْرِه[4] ... بَسَّامةً تَفْتَرُّ عن آياتِهِ
وتَرَى الحقولَ قصائدًا منظومةً ... بالرَّائعِ الفَتَّانِ من أبياتِهِ!
شيخُ الجُدُودِ وليس يعرف مَوْلِدًا ... لكنَّ عُمْرَ الْخُلْدِ من غاياتِهِ!
فحقُوقُه التقديسُ فوقَ محبةٍ ... وحقوقُنا مَقْرُونةٌ بحياتِهِ

---

[1] السَّرِيُّ لغةً: النَّهْر الصَّغِير، ومجازًا في البيت بمعنَى المتفرِّع المتنقِّل؛ أي الحي المتحرِّك.

[2] إشارة إلى تأثير النيل طبيعيًّا في حُسْن جوِّ مصر.

[3] اختار الشاعر تخصيصَ الإشارة للقُطْن في هذا البيت نَظَرًا لأنَّه أهمُّ حاصِلات مصر الزراعية.

[4] قوله: «مخضرة» فيه إشارةٌ إلى لَوْن الرَّايةِ المصرية.

وإذا أتيتَ لـه تُـنـاشِـدُ نُـصْـحَـهُ ألْفَيْتَ غالي النُّصْحِ في شاراتِهِ[٥]
يُوحِي ويُرْشِد في صُموتٍ بالِغٍ صَمْتُ القُرون تُشامُ في لَمَحاتِهِ
وتـهـزُّه طَـرَبًـا حـمـاسـة أهْـلِـهِ سِيَّانِ فـي الفِتْيانِ أو فَتَيَاتِهِ[٦]
يا «نيلُ» لن ينْسَى عُهودَك شاربٌ مِمَّـا مَـنَـحْـتَ وذاكِرٌ لِـحُـمـاتِـهِ[٧]

[٥] يقصد بشاراتِهِ قِلاعَ المراكب المعبِّرة عن حركة الانتفاع بخيره، كما يقصد بها ما على جانبَيْه من منشآت الرَّيِّ المفيدة.

[٦] «أو» هنا بمعنَى واو العطف.

[٧] في هذا البيت مُناقَضةٌ لقول الشَّاعر قديمًا:

أتطلُبُ من زمانِك ذا وفاءً وتأملُ ذاك جَهْلًا من بَنِيهِ!
لقد عُدِمَ الوَفاءُ به وإني لأَعْجَبُ مِن وفاءِ «النِّيلِ» فِيهِ!

الصحراء

تَمْتَدُّ كالأملِ الجميلِ النَّائِي ... تَقْسُو عليه عواصِفُ الهَوْجاءِ[١]
وتَحُدُّ «وادي النِّيل» غيرَ جَزُوعةٍ ... بسلاحِها المتألِّقِ الوَضَّاءِ
حِصْنُ الطبيعة قد حَبَتْه وَفِيَّةً ... لسَلامةِ الْمُلْك العَزيزِ الماءِ
كالكَوْثَرِ المأمول ليس يَنالُهُ ... إلَّا الصَّبُورُ على جِهادِ ظَماءِ[٢]
فإذا تهاونَّا بحفْظِ سِياجِها ... فقُلِ السلام إذنْ على الخَضْراءِ![٣]
ولرُبَّما شاقتْ عواطِفَ مُغْرَمٍ ... وسَمَتْ بَدائِعُها لعينِ الرَّائِي
فلها صِفاتٌ غيرَ قَيْظِ ظَهيرةٍ ... في الصَّيْف أو قُرٍّ بليلِ شِتاءِ[٤]
في وَحْشةِ الليلِ البَهيمِ أنيسةٌ ... بالرَّاقِصات: الأنجُمِ الزَّهراءِ[٥]
والبدرُ أجملُ مَن يُطِلُّ مُسَوَّدًا ... يدعو مُجابًا أَلْسُنَ الشُّعراءِ[٦]

---

[١] الهوجاء — كما ورَدَ في «فقه اللغة» للثعالبي: هي الريح التي تحمل المور وتجرُّ الذَّيْل، وبعبارة أخرى: الريح التي لا تستوي في هبوبها، وتقلع البيوت. وفي هذا إشارة إلى أنَّ الصحراء تُشْبِه فُسْحةَ الأمل الجميل المضطرب المُهدَّد.

[٢] الظَّماء كالظَّمَأ: العَطَش الشديد. والمقصود أنَّ النيل كنهر الكَوْثر في الجنة لن يَصِلَ إليه إلَّا الصَّبورُ العَفيف الجِهاد، فسِياجُ الصحراء لوادي النِّيل يُمثِّل هذا الصَّبرَ والجهادَ لِمَن يُريد أنْ يبلُغَ النِّيل.

[٣] السِّياج: السُّور أو الحائط، والمقصود بالخضراء الأرض الخِصْبة المزروعة من وادي النيل.

[٤] القَيْظ: شدة الحَرِّ. الظَّهيرة: حدُّ انتِصاف النهار. والقُرُّ: البَرْد.

[٥] البهيم: الأَسْود. والزَّهراء: المتلألِئة.

[٦] مُسوَّد: مُؤَمَّر.

ومتى أتَى الفجرُ الجريحُ وبعدَه جيشُ الشُّروقِ مُضَرَّجًا بدِماءِ
بزغتْ ذُكاءُ وللسلام بُزوغُها فتُعيدُ للأحياءِ نُورَ رجاءِ[٧]
فإذا الرِّمالُ من النَّدَى وشُعاعِها ما بين دمعِ هوًى ونارِ حياءِ!
مُتَأَلِّقاتٌ كالجَواهِرِ إنَّما تُوحِي القناعةَ: نعمةَ السُّعَداءِ
وتمرُّ قافلةٌ فتحسبُ أنَّها حقًّا تُفتِّش عن خَفِيِّ هَناءِ![٨]
تَمْشِي على ثِقةِ المُؤَمَّرِ ما له جَزَعٌ ولا يَخْشَى هبوبَ شقاءِ
وإذا الزَّوابعُ روَّعتْ لم تعتبر هجماتِها أقْسَى مِنَ الأحياءِ!
حتى إذا حان الغروبُ تجَلْبَبَتْ للنابِهِين بفِتنة الأضواءِ
ودَعَتْ عقولَ المبصِرين لسجدةٍ لله مُحْيِي الكونِ بالآلاءِ![٩]

---

[٧] ذكاء: اسم الشمس عند الشروق.

[٨] القافلة: الرُّفقة المُسافِرة.

[٩] الآلاء: النِّعَم.

الفلَّاح

لِمِثْلِ جُهْدِك قَدْرًا يُخفَضُ القَلَمُ ... ويَنظِم المدْحَ أخيارُ الأُلَى نَظَمُوا
يا حارثَ الأرضِ في صَبْرٍ وفي دَعَةٍ[1] ... لولاك ما قامَ مُلْكٌ أو سَمَا عَلَمُ
ويا قَنُوعًا بعَيْشٍ كُلُّهُ تَعَبٌ ... إنَّ المتاعبَ فخرٌ أصلُهُ الشَّمَمُ
تَخِذْتَ من صبغةِ الجَوْزاءِ صافيةً ... لونَ الرِّداء يُحلِّي رمزَه الكرَمُ[2]
أو السموُّ بنفسٍ تشْرَئِبُّ إلى ... نُبْلِ الحياةِ ولا يَهْوِي بها[3] السَّقَمُ
تُركتَ في الجهلِ والأمراضِ فاتكةً ... واللهُ يُنكِر أهواءَ الأُلَى ظَلَمُوا
ومن جهودك يُروَى النبتُ مُلْتَجِئًا ... قبلَ المياهِ وممَّا تبعثُ الهمَمُ
حتى خَلَقتَ «لمصرَ» الخُلْدَ مُعْتَرَفًا ... به، وحجَّتْ إلى جنَّاتِهِ الأُمَمُ!
وأنت في كلِّ أمرٍ يُستعانُ به ... أمَّا الجزاءُ فجهدٌ ذاهبٌ ودَمُ
واليومَ فَجْرُكَ بعدَ الليل منبثقٌ[4] ... فعِشْ لشَعْبِك لا يَسْرِي لك النَّدَمُ
مُكَلَّلًا برضاءِ «التاج» محتكمًا ... إلى حِمَى العدلِ، فهو السيِّدُ الحَكَمُ

---

[1] الدَّعَة: خَفْضُ العَيْش والسكينة.

[2] الجوزاء: بُرْجٌ في السماء. قوله: «يُحلِّي رَمْزَه الكرَمُ»: لأن اللون الأزرق هو لون البحر الذي يُضرَب به المَثَل عادةً في السخاء. وقوله: «أو السمو بنفس»: إشارة إلى أنَّ الزُّرْقة لونٌ للسماء أيضًا.

[3] يهوي: يسقط، إشارة إلى شجاعة الفلَّاحين رغم ما يُعانُونَه من أمراضٍ قاسيةٍ هادِمةٍ للقُوى كالبلهارسيا والإنكلستوما. وقوله فيما بعدُ: «ومن جهودك يُروَى النبت»: إشارة إلى عَرَق جَبِين الفلَّاح الكَدُود الشَّقِي.

[4] منبثق: مندفع.

مُبَجَّلًا مِن شبابِ اليوم زهرتِهِ ... فهم غِراسُك لم يَنسَوْا وما سَئِموا
وهم رجالُ الغدِ البسَّام مشرقُهُ ... فثِقْ بعَهْدٍ لهمْ يَسْمُو به القَسَمُ
وسوف تعرفُ أعيادًا محجَّلةً[٥] ... تعتَزُّ فيها فلا عَسْفٌ[٦] ولا خَدَمُ
فالشِّعْبُ نهضتُه إنهاضُ جملتِهِ[٧] ... لا أن يكون به راعٍ ولا غَنَمُ
والقدرُ للناس بالأعمال نافعةً ... وبالمآثر تَسْتَهْدِي بها الشِّيَمُ[٨]

[٥] الأصل لغة: حُجِّل الفَرَس: كان في قوائِمه تحجيلٌ؛ أي بياضٌ فهو مُحَجَّلٌ ومحجولٌ. والمقصود بالكلمة مجازًا في هذا الموضع وصفًا لأعياد أنها أعياد نقية ضاحكة، وهو ما يُوحِيه لون البياض.

[٦] العَسْف: الظُّلْم، وأيضًا بمعنى الموت.

[٧] الجملة: جماعة الناس.

[٨] الشِّيَمُ: جمع شِيمة أو شِئْمة، وهي الخُلُق والطَّبيعة.

راعي الغَنَم

تَـخِـذَ الـوفـاءَ[1] رفـيـقَـهُ ودَلِـيـلا ... ومَضَى وما خَشِيَ الضَّلالَ سَبِيلا
يـرعـاه كـلـبٌ بـالـوَلاءِ وجِـذْقُـهُ ... يـرعـى لـه غـنـمًـا تُـرِكْـنَ طـويـلا
مَـثَـلُ الـتـعـاوُنِ لا يـشـوبُ جـمـالَـهُ ... ضـجَـرٌ فـلا يُـشـقِـي الـخـلـيـلُ خـلـيـلا
أَعْـجِـبْ بـإنـسـانٍ يُـقـادُ بـكَـلْـبِـه ... نـفـعًـا، ويُـخـدَم بُـكـرةً وأَصِـيـلا[2]
ويـنـام مـلْءَ الـنـفـسِ مِـن أحـلامِـه ... أنَّـى يـشـاءُ ولا يَـخـافُ مَـقِـيـلا
كلُّ الْـمُـرُوجِ[3] الـسَّـامِـحـاتُ مـقـامُـه ... كـلُّ الـغُـصُـون لـه تُـعِـدُّ ظَـلِـيـلا
يَـكْـفِـيه بـعـضُ حشائشٍ تَرْضَى بها ... أغـنـامُـه[4] لـيَـرَى الـهـنـاءَ جَـزِيـلا
يَـكْـفِـيـه مِـن أنـسٍ تـحـيـةُ عـابِـرٍ ... أو[5] مِـن نـسـيـمٍ قـد يَـمُـرُّ بَـلِـيـلا
وإذا تَـمَـلَّـكَـه الـخـيـالُ لـبـرهـةٍ ... فـحـدُودُه أن يَـسْـتَـطِـيـبَ رَحـيـلا
كـالـحـظِّ لـيـسَ لـه مـقـامٌ ثـابـتٌ ... ويَـظَـلُّ بـالـوَعْـدِ الـصَّـدُوق بَـخِـيـلا!
ولـقـد أتَـيْـتُ لـه وفَـيْـضُ خـواطـري ... شَـغِـفٌ بـمـرْأَى يُـسـتَـحَـبُّ جَـمِـيـلا

---

[1] قوله «تَخِذَ الوفاء»: تسميةٌ للكلب بالصفة الغالبة فيه، وهي الوفاء، وعادة الرَّاعي أو الغَنَّام الاعتماد على كلبه رفيقًا ومساعِدًا ودليلًا.

[2] البُكْرة: الغَدْوة، أو ما بين الفجر وطلوع الشمس.

[3] مروج: جمع مَرْج، وهي الأرض الواسِعة فيها نبتٌ كثيرٌ. تَمْرُج: «أي تَرْعَى» فيها الدَّوابُّ.

[4] أغنام: جمع غَنَم. وحشائش: جمع حشيشة.

[5] أيْ تحية مِن نسيم ...

وعصاهُ مِن خَلْفٍ على كتفَيْه لا تَعْنِي سوى سِحرِ الهَنِيء أُحِيلا!
قلتُ: «السلامُ عليكَ» قال: «... ورحمةٌ»[٦] وأخذتُ أسمعُ للبَساطةِ قِيلا[٧]
لغةُ الحكيمِ يَرَى الحياةَ جليلةً للمَرْءِ إنْ عَرَفَ الإلهَ جَلِيلا
متنعِّمًا بنَعِيمِه عن فِطْرةٍ لا عن مَظاهِر كم رمتْهُ مَهِيلا[٨]
وإذا بصاحبِهِ الوَفِيِّ[٩] وجمْعِهِ غادُون[١٠] وهْو الفيلسوفُ أَصِيلا!
ولهم بمدرسةِ الطَّبيعة وعظُها وَعْظًا بإسداءِ الحُبُورِ كَفِيلًا

[٦] يعني: ورحمة الله ...
[٧] قيلًا: قولًا.
[٨] مَهِيلًا «مجازًا»: بمعنى مُحَقَّرًا مَدْفُونًا.
[٩] يُشِير إلى عودةِ الكلب والغَنَم من المرعى.
[١٠] الضمير عائد إلى الكلب.

حياةُ الرِّيف

حُيِّيتَ يا مُلْكَ الحياةِ الوَافِي ... بـالـتـاجِ والآلاءِ والأَعْـرافِ[1]
الشمسُ تاجُك والعَطايا جَمَّةٌ ... والجُودُ من صُوَرِ النَّمِير الصَّافِي
ومِن الأزاهِرِ والنَّخيلِ وعسكرٍ ... شتَّى الفروعِ منوَّعِ الأَوْصافِ
النَّحْلُ بعضُ جيوشِهِ وطُيورِهِ ... مَثَلُ الهَوَى وتَصاحُبِ الأُلَّافِ[2]
والناسُ في صِدْقِ المحبةِ واحدٌ ... جمعٌ يَدِين هُدًى بغيرِ خِلافِ
فيكَ الأميرُ وخادِمٌ من زُمْرةٍ ... في المؤْمِنين وجملة الأضيافِ
فيكَ الطُّيورُ أَقَمْنَ عِيدًا دائمًا ... وحَكَمْنَ أنَّ الدهْرَ سوفَ يُصافِي
فيك الحقولُ بدَمْعِها وسُرُورِها ... مثل العَرُوس بكَتْ بيوم زفافِ
فيك الجداولُ بالغِناء شَجيةٌ ... أبدًا تُلَقِّنُ صنعةَ العُزَّافِ
فيك البهائمُ لا تُعَدُّ سَوائِمًا[3] ... عندَ الحَسُودِ لصَفْوِها الطَّوَّافِ
فيك المشاهدُ لا تضِنُّ بطِبِّها ... وتَجَدُّدِ الآمالِ والأَلْطافِ[4]

---

[1] الأعراف: سُور الجَنَّة.

[2] الأُلَّاف: جمع الآلِف، وهو العَشِير المؤْتنس.

[3] البهائم: جمع البَهِيمة، وهي كل ذات أربعٍ قوائمَ من دوابِّ البَرِّ والماء. والسوائم: جمع السَّائِمة، وهي الماشية والإبل الراعية.

[4] أَلْطاف: جمع لطف.

ويزور من أهل المدائن بائسٌ فيعود في حُلَلِ الضِّياءِ الضَّافي[٥]
متمتِّعًا بجديد عُمْرٍ باسِمٍ وبلـذَّةِ الأَحْـلامِ والأَطْـيـافِ[٦]
يَذَرُ[٧] الغرورَ وقد تحوَّل مُؤْمِنًا بالرِّيف مُعْطِي الرِّزْقِ للآلافِ
يَشْفِي النفوسَ الوَاهِناتِ بزَوْرةٍ بينَا احتِكامُ[٨] المُدْن ليس بشَافِ
رِئةُ البلادِ المنعَشَاتِ وقلبُها و«النِّيلُ» شريانُ الدِّمِ الرَّفَّافِ[٩]
قُلْ للجَهُولِ بِسِرِّهِ وبقَدْرِهِ لولاهُ لم نَظْفَرْ بخيرٍ وافِ
فاستَبْقِ للرِّيفِ الكريمِ جَلالةً والْجَأْ إليهِ مِن الزَّمانِ الجافِي

---

[٥] الضافي: المنتشر.

[٦] أطياف: جمع طَيْف، وهو الخيال الطائف في النوم.

[٧] يذر: يترك.

[٨] يُقال احتكم في الأمر: أي حكم فيه وقضى.

[٩] الرفَّاف: المهتزُّ نَضارةً.

قنال السويس

ناجِ العزيزَ مِن الخيالْ ... في وصْفِ مَفْخَرةِ «القنالْ»
واستَوْحِ[1] ماضيَ «مصرَ» عن ... مجهودِ أبطالِ الرِّجالْ
الحافِريهِ بعَزْمةٍ ... من قَبْلِ هندسةٍ ومالْ
والواصِلِي البحرَيْنِ[2] من ... عَرَقِ الجِباهِ ومِن فِعالْ!
والصابرين على المصا ... عب قد تَنُوءُ بها الجِبالْ
ما بينَ تَسْخِيرٍ وتحـ ... ـقِيرٍ ولكنْ للجَلالْ![3]
حتى اغتَدَوْا أُحْدُوثة الـ ... أَجْيالِ في صُنْعِ الْمُحالْ!
فإذا السَّفينُ بفضْلِهم ... صارتْ تَسْيرُ على الرِّمالْ![4]
لا تلمحُ العينُ البعيـ ... ـدةُ غيرَ أصباغٍ غوالْ
من صُفرةِ الذَّهبِ الأصيل ... لحمرةٍ تُشْجِي الخيالْ

---

[1] استَوْحَى: طلبَ الوَحْيَ؛ أي الإلهام.

[2] البحرين: البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر.

[3] يُشِير إلى ما عاناهُ العُمَّال المصريون من الشدائد والمشقَّات والسخرية في سبيل حفْر القنال، ولكنْ كلُّ ذلك كان في سبيل عظمة مصر ورُقِيِّ الإنسانية.

[4] إشارة إلى ضِيق القنال وامتداد الصحراء على جانبيه حتى لَيُخَيَّل للإنسان خطأً عن بُعْدٍ أنَّه لا وجود للممر المائي، وإنما تُقاد السُّفُن على الرِّمال! وللبيت أيضًا معنًى شِعريٌّ أدقُّ في تصوير مبلغ الإعجاز في قهر الطبيعة.

والـمـاءُ مَـخْـفِـيٌّ كـمـا تَخْفَى الحقيقةُ في جِدالْ
ما بينَ منثورِ النَّخِيـ ـلِ وبين مَنْظُومِ التِّلالْ
حـتـى تـلـوحَ بُـحَـيْـرةٌ فـتـضُـمُّـهُ ضـمَّ الـوِصـالْ
فـي أرضِ قُـدْسِـيِّ الـزمـا نْ[٥] مِـثـالُـهـا فـذُّ الْـمِـثـالْ
ودَعَـوْهُ مـفـتـاحَ الـدِّيـا رِ وبـعـضَ عـنـوانِ الـمـآلْ
وهـو الأحـقُّ بـأنْ يُـسَـمَّـ ـى دَرْبَ «مصرَ» إلى الكَمالْ[٦]
الـسـائـلُ الأبـنـاءَ لـلـتَّـ ـفْـكِـيـرِ فـي حـالٍ وحـالْ
كـمْ مـن شُـعـوبٍ بـالـمـلا حـةِ أَسَّـسـتْ مُـلْـكًـا فـصـالْ
أحـلامُ آمـالٍ مـضَـتْ لا تـتْـرُكـوهـا لـلـزَّوالْ!

[٥] إشارة إلى ما اقْترن ببرزخ السويس من الذِّكْريات التاريخية الكريمة.

[٦] إشارة إلى اعتقادِه في أهمية المِلاحة كوسيلةٍ لإبلاغ الأُمَّة غايتَها من الكمال قوةً وغِنًى واقتِباسًا من مدنيَّات غيرها من الأُمَم، وهذه كانتْ وِجْهَةَ نظرِ وآمالِ المغفورِ له إسماعيل باشا خديو مصر العظيم. وقد شرح الناظمُ ذلك في الأبيات التالية.

رأس البر

أشرقْتِ راقصةً بغيرِ إزارِ ... وفتَنْتِ غانيةً عنِ الأزْهارِ![1]
خلقَتْكِ أمواجٌ تَجُودُ بتِبْرِها[2] ... وطَهُرْتِ «بالنِّيلِ» الطَّهُورِ الجاري
في كلِّ عامٍ لا يضِنُّ بفَيْضِهِ ... من ضاحِكِ الجنَّاتِ والآثارِ
يُهْدِي إليكِ حنانَها وسُؤالَها ... وخصائصَ الأسرارِ والأخبارِ!
فكأنَّ رمْلَكِ في توهُّجِ نُورِهِ ... سِيَرُ القُرُونِ تطلَّعتْ للقارِي!
وكتابةٌ للفيلسوف خفيَّةٌ ... عن أعينِ الجُهَّالِ والأغرارِ
لله ساعاتُ السُّرورِ قضيتُها ... متوسِّدًا كنفَ الجمالِ العارِي
متغزِّلًا بحُلَى الطبيعة لم تَدَعْ ... ظمأً إلى المَتْرُوكِ من أوْطارِ
ومشبِّبًا بالبحر أحسبُ نثْرَه ... لرشاشِهِ الضَّاحِي قشورَ درارِي[3]
ومُناجِيًا شمسَ الغُروبِ تساؤلًا ... عمَّا تحجَّبَ من جديدِ نهارِ[4]
وإذا نزعتُ إلى السباحة لاهيًا ... ألقَيْتُ همَّ النفس للتيَّارِ!
والناس حولي في حُبورٍ دافِقٍ ... يأبَوْن ما اعتادُوه من أسوارِ

---

[1] يقال لغة: غَنِيَتِ المرأةُ أيْ صارتْ غانيةً. وهي الغَنِيةُ بحُسْنِها وجَمالِها عن الزينة. وقوله: «غانية عن الأزهار»: مِن غَنِيَ بالشيء عن غيره؛ أي اكْتَفَى.

[2] يعني رملَ البحر.

[3] رشاش: جمع رشٍّ وهو أصلًا المطرُ القليل. والضاحي: البارز للشمس. والدراري: النجوم.

[4] أي عن النهار الجديد في النِّصْف الآخَر للكرة الأرضية الذي أخذَتْ تُشرِق عليه الشمس الغاربة ...

فأرى السماحةَ والرَّشاقةَ حُرَّةً وتحرُّرَ الجنسين من أستارِ
وأرى الفضيلةَ في أحبِّ صِفاتِها وأرى القناعةَ في أجلِّ إطارِ
أين الْتفتُّ فصورةٌ من لذَّةٍ وبكل مرأًى مستطابُ قرارِ
ومجالسُ السُّمَّار[٥] وهْي كثيرةٌ تمتاز بالإنعاشِ لا الإسْكارِ
وفخورةُ الأعشاش في إعْزازها وهنائها كمنازل الأَطْيارِ
مصريةُ القَسَمات[٦] ليس يَشُوبُها تحنانُ أهلِيها لبُعْد ديارِ
لم تَعدِمِ الإيناسَ رغمَ بساطةٍ والكبرياءَ على العَزُوف الزَّارِي[٧]
وتقول «للمصري»: عندَكَ مُتْعَتِي قبل النُّزوعِ إلى هوى الأَسفارِ!

[٥] السُّمَّار: جمع السامر، وهم القوم المتسامِرون.
[٦] القسمات: الوجوه.
[٧] العَزوف الزَّاري: الزَّاهد فيها المُحقِّر لها.

عيد النَّيْرُوز[1]

عـيـدٌ يَـجُـودُ بـه الـرَّبـيـعُ وطـالَـمَـا ... وَهَـبَ الرَّبـيـعُ إلـى الـنُّـفـوسِ حُـبُـورا
يَـمْـتـازُ بـالـذِّكْـر الـجـمـيـلِ لأَصْـلِـهِ ... فـهـو الـمُـمَـثَّـل فـي الـجـمـالِ عُـصـورا
عشقَتْه «فارسُ» ثم «مصرُ» فأسْرَفَتْ ... فـي مَـنْـحِـه الـتـزْيـيـن والـتـقْـديـرا
وَهَـبُـوا لـه الـنِّـيـرانَ لـيـلـةَ عُـرْسِـه ... والـمـاءُ فـي صـبـحِ الـهـوى مَـنْـثُـورا[2]
والـشـمـسُ تَـرْعـاهُ رعـايـةَ أُمِّـهِ ... وتَـمُـجُّ فـي فِـيـهِ الـشَّـهِـيِّ الـنُّـورا

---

[1] لعيد النَّيروز — وإنْ تَمَصَّر — أصلٌ فارسي. قال النُّوَيري في «نهاية الأَرَب» عندَ ذِكْر أعياد الفُرْس: «فأمَّا النَّيروز فهو أعظمُ أعيادِهم وأجَلُّها، يُقالُ إنَّ أوَّلَ مَن اتَّخذَه «جمشيد» أحدُ مُلُوك الفُرس الأُوَل، ويُقال فيه: «جمشاد»، ومعنى «جم»: القمر، و«شاد»: الشعاع والضِّياء، وسبب اتِّخاذِهم لهذا العيد أنَّ طهومرت لَمَّا هلك مَلَك بعدَه جمشاد، فسَمَّى اليوم الذي مَلَك فيه نوروز؛ أي اليوم الجديد. ومِن الفُرس مَن يزعم أنَّ النَّيروز اليوم الذي خلق الله، عزَّ وجلَّ، فيه النُّور، وأنَّه كان مُعظَّم القدْر عند جمشاد. وبعضُهم يزعم أنَّه أوَّل الزمان الذي ابتدأ فيه الفَلَك بالدَّوَران.»

[2] قال النُّوَيري أيضًا: «وكانتْ عادةُ عوامِّ الفرس فيه رفعَ النار في ليلَتِه، ورشَّ الماءِ في صبيحَتِه»، وفي ذلك يقول المعوج:

كيف ابْتِهاجُك بالنَّيروزِ يا سَكَنِي؟ ... وكلُّ ما فيهِ يَحْكِينِي وأحْكِيهِ!
فنارُهُ كلَهيبِ النَّارِ في كبدي! ... وماؤُهُ كتَوالِي عَبْرَتِي فِيهِ!

ولـرُبَّـمـا أَوْفَـى أبـوهُ يَـرُشُّـهُ بـالـدُّرِّ مِـن عَـلْـيـائِـه مـأْثُـورا
وتَرَى النـخـيـلَ مُـضَـجِّـيًا بـحُـلِـيِّـهِ لـتَـكـونَ رمـزًا لـلـسَّـلامِ نَـضِـيـرا
مـتـعـانـقَ الأقـواسِ يَـسْـتَـذْرِي بـهـا فـوقَ الـجـنـانِ الـزَّائـنـات قُـصـورا
وتَرَى الأَسـاوِرَ فـي المعاصِمِ بهجةً وتَرَى الـخـواتِـمَ خُـوصَـه المَـضْـفُـورا
والبَيْضُ بالأَصْباغِ مفرحةَ المُنَى تُـوحِـي جَـدِيـدًا لـلـمُـنَـى وشُـعـورا
وترى الكبارَ مع الصِّغار تآلَفُوا وتـقـاسَـمـوا مـلْءَ الـنـفـوسِ سُـرورا
ثـم الـمـواكـبَ نُـسِّـقَـتْ بـتـفَـنُّـنٍ واللَّـهْـوَ يـعـدمُ فـي مَـداهُ نَـظِـيـرا
وترى الفقيرَ مع الغنِيِّ تَساوَيَا طَـرَبًـا فـلا تَـجِـدُ الـفـقـيـرَ فـقـيـرا
والـكـلُّ أقْـسَـمَ أنْ يَـبَـرَّ بـيَـوْمِـهِ فـرحًـا وعـاهَـدَ أن يـكـونَ شَـكُـورا
لـم يَـنـظُـروا حُـسْـنًـا وَجِـيـدًا عـاتِـبًـا إلَّا وكـانَ بـوُدِّهـم مَـعْـمُـورا
أو يَـشْـهَـدُوا مـرأًى جـمـيـلًا شـائِـقًـا إلَّا وصُـوِّرَ عـنـدَهـم تـصـويـرا
فـي الذِّهـن يُـنـعِـشـهـم زمـانًـا تـاليًـا حـبًّـا ونُـورًا بـاسِـمًـا وعَـبِـيـرا
والـرَّسْـمِ تـذكـارِ الـسَّـعـادة حُـرَّةً لـولاهُ لـم يـكُ رسْـمُـهـا مـأْسُـورا![3]

وقال آخَرُ:

نَوْرَزَ الناسُ ونَوْرَزْ تُ ولكنْ بدُمُوعي!
وذَكَتْ نارُهُم، والنَّـ ـارُ ما بين ضُلُوعِي!

[3] ليس الرسم الفوتوغرافي (الصورة الشمسية) إلَّا أَسْرًا لأضواءٍ في مظهَر آخَر، هو المظهَر الكيميائي المثبَّت.

الأهرام

أفنَيْتِ يا رمزَ الخُلودِ الأعْصُرا[1] وبَقِيتِ للأملِ المجدَّدِ مَظهَرا
أُنشِئْتِ مِن بأسِ المُلوكِ قُبورَهم فمَضَوْا وذِكْرُك قاهرٌ لن يُقْبَرا
وبُنِيتِ بالعَسْفِ الشديدِ شَهيدةً بالظُّلْم، لكنْ صِرتِ معنًى أكبَرَا
عرفَ الجدودُ المجدَ دِينَ مُلُوكِهم فبَنَوْا خزائِنَه الرَّفيعاتِ الذُّرى
وأبَوْا حَقِيرَ التُّربِ يَلمَسُ هَيْكلًا منهم ولو صارَ التُّرابُ مُجَوْهرًا![2]

[1] الخطاب موجَّه إلى أهرام الجيزة الشَّهيرة، وإنْ وُجد عداها في المنطقة الممتدَّة من الجيزة إلى مَيْدوم، ومجموع المستكشَف منها حتى الآن ستةَ عشرَ هرمًا، وكلُّها بُنِيتْ مقابرَ للفراعنة، وكان بناؤها من الحجر الجيري المشتَقِّ من جبل المقطَّم، وكانتْ مغطَّاة بألْواحٍ من الجرانيت، وكثيرٌ من هذه الألْواح بعدَ سُقوطِها اتَّخذه العربُ لبناء جوامعِ القاهرة بعد الفتح الإسلامي. وحسْبُنا في تقدير جَسامة هذه الأهرام أن نذْكُر أنَّ الهرم الأكبر، وهو أفخَمُها، يبلُغ من الارتفاع (وَفْقَ أحدث تقْدير) ٤٥١ قدمًا، وقاعدة كلِّ جانبٍ من جوانبه تبلُغ من الطُّول ٧٥٥ قدمًا، ومساحة ما تَشغَلُه قاعدتُه العامة من فراغ ٥٣٥٨٢٤ قدمًا مربعًا، وسعة حجْمه خمسة وثمانون مليونًا من الأقدام المكعَّبة! وقدَّر الأثريُّون أنَّ أحجارَه كافيةٌ لبناء سُورٍ حولَ فرنسا كلِّها عَرْضُه قدمٌ وارتفاعه أربعةُ أقدام، وأنَّ مقدار مادَّته البنائية أعظمُ ممَّا يُوجد في أيِّ بناءٍ آخَر في العالَم، وأنَّه يَشغَل فراغًا أعظمَ ممَّا يَشغَله معبدُ الكرنك العظيم! ولا يَزالُ حتى الآنَ علماءُ الهندسة البنائية في حَيْرةٍ أمامَ ثبوته التامِّ رغمَ مُرور الآلافِ من السنين على بنائِه المُتْقَن الذي استَنْفَد مجهودًا عظيمًا وتسخيرًا للآلاف من العُمَّال!

[2] في قوله: «ولو صار التراب مجوهرًا» إشارة إلى توهُّم حدوث ذلك من مُلامسة هياكلهم الجثمانية له!

حَقَدوا على الدنيا الخئونة حِقْدَهم ... واستصغروا للعَقْلِ أن يتقَهْقَرا
فعلى رُءوسِك للمُلوك نِداؤُهم ... ما زالَ بالحثِّ العظيمِ مُظَفَّرًا!
مَن ذَا يَرَاكِ وليس يخْفِقُ قلبُهُ ... عجبًا، ويُحجِم عن مُفاخَرة الوَرَى؟
مَن ذا يَشِيم[٣] ثُبوتَكِ العالي ولا ... يهتزُّ للعَلْياء مهما قصَّرا؟
مَن ذا يُراقِبُ للغروب مناحةً ... ويظلُّ كالصخرِ المَدَى مُتحجِّرًا؟
قد قمتِ للإنسانِ غضبةَ ثائرٍ ... يأبَى الفناءَ مدبِّرًا ومفكِّرًا
وبرزتِ «للمصري» معجزَ دينه ... دينُ العظائمِ والبقاءِ مُكرَّرا
ورفعتِ للأحفادِ خيرَ منارةٍ ... عندَ المصائبِ يَهْتَدون بها السُّرَى[٤]
وشهدتِ من ماضِي الحوادثِ مُفْجِعًا ... يَذْرُو[٥] الجبالَ فما اهتزَزْتِ على الثَّرَى!
ولبثتِ يَرْقُبُك البنونَ لوَعْظِهم ... ويُعزُّك النجمُ الفَخيمُ مُحَيَّرًا![٦]
ويُقال: هندسةُ العجائب ... إنَّما ... «للنِّيل» أنتِ ذخيرةٌ لا تُشْتَرَى!

---

[٣] يشيم: يَرى.

[٤] السُّرَى: سَيْر الليل. قوله: «يهتدون بها السُّرَى»: أي يعرفون طريقَ السُّرى الموصِّل إلى نجاتهم.

[٥] يذرو: يُطيِّر ويُفرِّق.

[٦] مِن أحاسِن الأوصافِ النظْمية القديمة لهَرَمَيِ الجيزة الكبيرين (الهرم الأول والثاني، أو هرم خوفو وهرم خفرع) قول ابن الساعاتي:

ومِن العجائبِ والعجائبُ جَمَّةٌ ... دقَّتْ عن الإكْثارِ والإسْهابِ
هرمانِ قد هَرِمَ الزمانُ وأدْبَرَتْ ... أيامُه، وتَزِيدُ حُسْنَ شبابِ!
للهِ أيُّ بَنِيَّةٍ أزلِيَّةٍ ... تبغي السماءَ بأطولِ الأسبابِ!
وكأنما وقفتْ وُقوفَ تبَلُّدٍ ... أَسَفًا على الأيَّامِ والأَحْقابِ!
كتمتْ على الأَسْماعِ فصْلَ خِطابِها ... وغدَتْ تُشِير به إلى الأَلْبابِ!

وأمَّا الهرمُ الثالثُ (هرم منقرع) فلم يكنْ له حظٌّ من الإكْبارِ ... (راجع كتاب «حُسْن المحاضَرة في أخبار مصر والقاهرة» للعلَّامة الشيخ جلال الدين السيوطي.)

أبو الهَوْل[١]

يا جاثِمًا أَعْيَا العقولَ صُمُوتُهُ ... وتظلُّ قاهرةَ البُحوثِ نُعُوتُهُ![٢]
حتَّامَ تَهْزَأُ بالأَنامِ وحالِهم؟! ... وكأنَّما أقْسَى البيانِ سُكوتُهُ!
ونُحِتَّ مِن صَخْرٍ كحالِكَ ثابتٍ ... هيهاتَ يَأْبَهُ للزمانِ ثبوتُهُ[٣]
ويُقال: أنتَ «إلهُ صُبْحٍ» مُقْبِلٌ ... للمُلْكِ نحوَك أهلُهُ وسُمُوتُهُ[٤]
تَبْقَى ويَمْضِي مَن بَناكَ وهكذا ... الفنُّ يَبْقَى والأصيلُ[٥] يفوتُهُ!
وتُخالُ رمزَ جلالِ «مصرَ» وعِزِّها ... وبها الهياكلُ في الشُّروق بيوتُهُ!
قد كان تاجُك حِليةً وضَّاءةً[٦] ... فإذا بتابوتِ العُلَى تابوتُهُ

---

[١] سمَّاه مؤرِّخو العرب: «بلهوب»، والجمع «بلاهيب»، وهذا الجمع ممَّا يصحُّ إطلاقُه على الأمثلةِ المُشاهَدة في الكرنك.

[٢] الجاثم: المنطَرِح المتلَبِّد بالأرض. والصُّموت: الصَّمْت. والنُّعوت: الأَوْصاف.

[٣] ليس أبو الهول بناءً مستقلًّا كأبنيةِ الأهرام مثلًا، بل إنَّه منحوتٌ ومصوَّر في صخرٍ طبيعيٍّ بمكانِه، ويَأْبَهُ له بمعنى يَلْتَفِتُ إليه ويُعنَى به.

[٤] أي يتَّجِه نحوَك. وسُمُوته: جمع سَمْت، وهو الطريق. ومِن آراء العلماء أنَّ «أبا الهول» في عقيدة قُدَماء المصريين يمثِّل إلهَ الصُّبْح هرماكس Hurmachis، ولا يُعرَف أكيدًا حتى الآن مَن الذي نَحَتَه.

[٥] الأصيل: المقصودُ بها المتفنِّن الذي أبْدَعَه.

[٦] تكلَّم بإعجابٍ عن تاجِ أبي الهول المَنْزُوع القسُّ استانلي الشَّهِير في كتابِه Sinai & Palastine، وقد عَثَر عليه مَدْفُونًا في الرِّمال الأثرية بجانِبِه الكولونيل دوم سنة ١٨٩٦م.

لَهْفي على العَهْد الذي بكَ أشرَقَتْ آياتُهُ وكأنَّني أُعطيتُهُ
وكأنَّني أُسْقِيتُ إكْسِيرَ الهَوَى فيهِ، وبالشِّعرِ الوَفِيِّ رثيتُهُ!
وطغَتْ عليكَ مِن الرِّمال كتائبٌ كالدَّهْرِ يعبَثُ بالجَمالِ مُرُوتُهُ[٧]
وتفتَّتَ الوجْهُ الصَّبِيحُ وما عنَا[٨] وكأنَّما مِسْكُ الفَخارِ فَتِيتُهُ!
وكأنَّ مِن ماضِي الحُروبِ[٩] دلالةً وهي الوُجومُ الجمُّ فيكَ رأيتُهُ!
بينا يَهَشُّ لدى الشُّروقِ لزائرٍ مرآكَ، مِن رُسُلِ الأشعَّةِ قوتُهُ!
ألقاهُ عند الليل — والقمر الذي يرعاه — يَبْكِي عصرَه فبكَيْتُهُ!
وكذا البعادُ عنِ الأَعِزَّةِ مُرْهِقٌ والحُسْنُ يَشْقَى إنْ مَضَى مَلَكُوتُهُ[١٠]
واليومَ أُقْرِئُكَ التحيةَ مُكْرَمًا مَجْدًا، ولوْ أنِّي استطعتُ فَدَيْتُهُ!
فالمجدُ للأجدادِ باعثُ مجْدِنا والصِّيتُ في المجدِ المجدَّدِ صِيتُهُ
والشَّعْبُ إنْ لم يَحْتَفظْ بتُراثِه ويَزِدْهُ سَعْيًا فالتَّهاوُنُ مَوْتُهُ!

---

[٧] مُرُوته: جَدْبه.

[٨] كان وَجْهُ «أبي الهول» جميلًا، كما وُصِفَ قديمًا، ولكنْ يُقال إنَّه أصابَ وجهَه التشويهُ في تعاقُبِ الأَجْيال على أَيْدِي مَن كَرِهوا هذا الأثرَ، ولم يَفْهَموا قيمتَه الفنيةَ، وعلى الأَخَصِّ في عهْدِ المماليكِ الذِينَ كانوا يتَّخِذونه هَدَفًا لقَنابِلِهم.

[٩] يُشِير خاصةً إلى «موقعةِ الأهرام» بين «نابليون» و«المماليك».

[١٠] إشارة إلى ما تبدَّل من حال «أبي الهول»، فأصبحَ مهوبَ الشكلِ كَئِيبَه غالبًا، بعد أنْ كان مَعْدودًا مثالَ الحُسْن وتناسُقِ الخِلْقة. والملكوت: العِزُّ والسُّلْطان.

ليالي رمضان

«شرقيةٌ» بجلالِها وسِماتِها[1] «غربيةُ» السَّهَراتِ واللَّمَعانِ[2]
فإذا المؤذِّنُ مُبْدِعٌ بأذانِهِ وصداه مُحْتَكِمٌ على الآذانِ
وإذا المصابيحُ السَّنِيةُ لم تَدَعْ حُسْنًا يُقاسُ بحُسْنِها الفتَّانِ
وإذا التَّسامُر بهجةٌ ومحبةٌ والنوم مطرودٌ عنِ الأجْفانِ
وإذا المُروءةُ والطَّهارةُ والهُدَى مُثِّلْنَ تحقِيقًا وصِدْقَ عيانِ
يتذوَّقُ الإنسانُ منها حظَّهُ بالعَطْفِ نحوَ شقيقِهِ الإنسانِ[3]

---

[1] سماتها: علاماتها.

[2] إشارة إلى التفنُّن المصري في الإضاءة، ومجالس السَّمَر محاكاةً للغربيين.

[3] من الوَصْف النَّظْمي القديم — وما أقلَّه! — لرمضان هذه الأبيات:

شهرُ الصِّيامِ على الأيامِ قد فَضُلَا حقًّا، وفيهِ كتابُ الله قدْ نَزَلَا
شهرُ المكارِمِ لا تُحصَى فضائِلُه فعظِّمُوه ولا تَبْغُوا به بَدَلَا
تَبْكِي المساجدُ مِن تَوْدِيعِه أسَفًا على الفِراقِ، فكمْ أَحْيَا لها أمَلَا!

وليس هناك وصفٌ تصويريٌّ دقيقٌ للحياة الاجتماعية بنَوْعَيْها في لياليه ولا لأخلاقِ الناس في غُضُونِه، مع أنَّه ذو صورةٍ قوميةٍ ممتازةٍ جديرةٍ بالتحليل والدرس.

ويُصِيخُ[٤] للذِّكْر الحكيمِ مُرَتَّلًا ومُطبَّقًا بالبِرِّ والإحسانِ
لا محضَ ألفاظٍ تُقالُ بلا حِجًى أو نظمَ أحكامٍ بغيرِ معانِ
وتَرَى بجانِبِها مشاهِدَ غارِقٍ في اللَّهْو مَحْرُومٍ من الإيمانِ!
متفنِّنٍ بطعامِهِ وشرابِهِ مُتجاهِلٍ بؤسَ الشَّقيِّ العانِي
مُتَديِّنٍ لكنْ بلذَّةِ نفسِه وكذاكَ كمْ قتَلَ النفوسَ أنانِي!
ولدَيْه شهرُ الصَّوْمِ شهرُ تحايُلٍ في مَطْلَبِ اللَّذَّاتِ لا الغُفْرانِ!
صُوَرُ النقيضَيْن الفريدَيْن معًا ومشاهِدُ النُّكْرانِ والعِرفانِ!
وبمَلْئِها نِعَمٌ تُزَفُّ لبائسٍ وبمَلْئِها مُثُلٌ[٥] من الحِرمانِ
وفضائلُ التَّقْوى النَّقيةِ كلِّها ومفاسدُ التَّمْدِين والخسرانِ
عِبَرٌ، فحبِّذْ ما استطعتَ جميلَها فسعادةُ الإنسانِ بالوِجْدانِ[٦]

---

[٤] يصيخ: يستمع.

[٥] مُثُل: جمع مِثال.

[٦] من خير ما قيل في برِّ رمضان ورُوح الصِّيام الحقِّ قولُ أبي إسحاق الصَّابئ:

يا مَاجِدًا يَدُهُ بالجُودِ مُفْطِرةٌ وفُوهُ عن كلِّ هُجْرٍ صائمٌ أبَدَا
أَسْعِدْ بصومِكَ إذْ قضَّيْتَ واجبَهُ نُسكًا ووَفَّيْتَهُ من حقِّهِ العَدَدا

وادي الملوك

يَحارُ مِن نظرةٍ أو جولةٍ فيهِ ... مَن لا يَرَاه بتصويرٍ وتشْبِيهِ[1]
فالشمسُ ما تركتْ نبتًا ولا حَجَرًا ... إلَّا وقدْ حَرَقَتْه أو ستَذْكِيهِ
وليسَ فيهِ لنفسٍ غيرِ عاشِقةٍ ... سِرُّ الجلالِ ولا عنوانُ ماضِيهِ
تَرَى التِّلالَ البواكي بعد حُرْقَتِها ... في مظهرٍ من شقاءِ المُلْك تُبْدِيهِ
فالعالِمُونَ بها ظَمْأَى لِمَا خَبَأَتْ ... والجاهلون بتأويلٍ وتَمْوِيهِ
جَرْداءُ معتزةٌ في صمْتِ عُزْلَتِها ... حمراءُ زَرْقاءُ تُخْفِي ما تُعانِيهِ
تحمَّلَتْ في قِفارٍ صَوْنَ مملَكةٍ ... وكم مليكٍ أتَى مَيْتًا لتَحْمِيهِ!
رأى «تحتمسُ»[2] مرآها يُجاذِبُهُ ... وعِزَّةً في ثَرَى «الوادي» تُناجِيهِ
فاختارَهُ مَدْفَنًا يأوِي لرحمتِهِ ... والموتُ رحمتُه النُّعْمَى لراجِيهِ
كأنَّما الشمسُ قد حالتْ أشِعَّتُها ... وكوَّنتْ صُوَرَ الرملِ الذي فيهِ
فهو الجديرُ بتقديرِ الملوك له ... وهو المضيءُ سَخِيًّا في دَياجِيهِ

---

[1] كثيرًا ما قال الواصِفون من السُّيَّاح إنَّه لولا مَدافِنُ مُلوك مصر القُدَماء لَمَا استحقَّ هذا الوادي الأجردُ هذه التسميةَ، فلن يشتاقَ إليه إلَّا مُحِبُّو الآثارِ وأهلُ التصوير الخيالي من الأدباء ورجال الفنون، فهم وَحْدَهم الذين يُسْعِفهم التشبيهُ ويتنعَّمون بالجولةِ فيه، فلا يَنالُهُم مَلَلٌ ولا تعبٌ …

[2] هو تحتمس الأول، وكان أولَ مَن عُنِي باتِّخاذ هذا الوادي الأجدَبِ الجرد مَخْبَأً لمقابر المُلُوك (حوالي سنة ١٥٠٠ قبل الميلاد)، وظلَّ هذا التقليد مُتَّبَعًا إلى حوالي سنة ١٠٩٠ قبل الميلاد. وفي وادي الملوك مدافنُ جميعِ عُظَماء مُلوكِ مصر القديمة.

فمِن «رماسِسة»[٣] همُّوا بأُمَّتِهم ... إلى «أمنحتبٍ» هزُّوا رَواسِيهِ
كأنَّهم في خَفِيٍّ مِن مقابرِهِم ... يُطاوِلون أبِيًّا مِن مَعالِيهِ!
أو أنَّما للتِّلالِ الحانياتِ على ... تلك الرُّموسِ فِدَى الوافِي لفَادِيهِ
كانوا ملوكًا حَبَوْا «مصرًا» جلالَتَها ... وأكرموا تُرْبَها إكرامَ مُحْيِيهِ
فليس بِدْعًا إذا غطَّى هياكِلَهم ... في سجدةِ الشَّاكِرِ العانِي لبارِيهِ!
ومِن حقوقِ العُلَى إخفاءُ مَرْقَدِهم ... فصاحبُ الكنزِ مَهْما اعتزَّ يُخْفِيهِ
وليسَ في البعثِ من حظٍّ لمَطْمَحِهم ... فخُلْدُهم دائمٌ والدَّهرُ رَاوِيهِ!
فإنْ بحثْنَا وأعلنَّا مفاخِرَهم ... فإنَّ بعثًا لهم في الجِيلِ يَهْدِيهِ!
وإنَّ حجًّا لوادٍ ضمَّ سيرتَهم ... حجُّ البُنوَّةِ والإجلالِ والتِّيهِ!

[٣] إشارة إلى مدافن رمسيس الأول والثاني والثالث والرابع وغيرهم مِن الرَّماسِسة المشهورة مقابرُهم بوادي الملوك، وكلمة: «رماسِسة»: جمعٌ وَضْعيٌّ لـ «رمسيس».

أنس الوجود

قِفْ للجَديدِ مِن الجُدُودْ ... يَبْدُو على «أَنَسِ الوُجُودْ»[1]
نبأٌ يُردِّدُه الزما ... نُ ورُبَّ أنباءٍ تَعُودْ
وبنشْرِه سمَحَ الرَّقِيـ ... ـبُ «النيلُ» والخِلُّ الوَدودْ
مِن بعْدِ عهدٍ للوصا ... لِ وبعدِ تحقيق الوُعودْ[2]
لكنْ يحفُّ سِياجُهُ ... بجَمالِها الفذِّ الفريدْ
ولها مِن الجُزُرِ الجوا ... ري أوْ لَهَا مُثُلُ العَبِيدْ[3]
وَهْيَ المُتوَّجةُ السَّنَى ... في عِزَّةِ المجدِ الوَحيدْ
«قدسيةُ الأقْداس» في ... سِرٍّ من العَهْدِ العَهِيدْ[4]
وبه البَخِيلةُ تارةً ... بينا تَبُوحُ لِمُسْتَزِيدْ!
لا بِدْعَ إنْ تُوفِ الطَّبِيـ ... ـعةُ بالجنودِ وبالسُّدودْ

---

[1] سُمِّيَ هذا المعبدُ بقصْرِ «أنس الوُجود» مُتابعةً لخُرافة فارسية قديمة، و«أنس الوجود» في زعْمِهم أحدُ نُبلاء فارس، وكانتْ خطيبتُه «زهر الورد» تسكن هذا المعبدَ محتَجِبةً، فلمَّا وفدَ إلى مصرَ وبلغ «النِّيل» تجاهَ المعبد عرض عليه تِمْساحٌ أن يَنقُلَه إليها ...

[2] يُشِير إلى انْحِسار ماءِ «النيل» عنها بعد الفيضان.

[3] تقع هذه الجُزُر الصغيرة شمالَ جزيرة بيلاق (أنس الوجود).

[4] العهيد: القديم العتيق، يُشِير إلى مكانتها الدينية القديمة.

ويُـظَـنُّ «شَـلَّالًا»[٥] ومـا هـو غـيرُ جـنـدٍ أو أُسـودْ
حَرَسُوا السبيلَ لمُلْكِها بين المهابةِ والسُّجودْ!
ولَوَ انَّـها فـي رَوْعـةٍ الــ ـقـهَّـار والـبـأسِ الـشـديدْ
وكأنَّ «بطليموس»[٦] في تكريمها خلف البنودْ!
فـتـحـوا لـه حـجـراتـهـا و«المعبدَ» الفخمَ التَّلِيدْ[٧]
وكأن «إيزيسَ» الجميـ ـلةَ فيه تُشْرِقُ مِن جديدْ!
و«سريرَ فرعونَ»[٨] العظيـ ـمِ يَهَشُّ للأملِ البَعيدْ!
وكأنَّما «العُمُدُ»[٩] التي نُصِبتْ مواثيقُ العُهودْ!
تَبْقَى مسجَّلةَ الرِّعا يةِ للفَخارِ وللخُلودْ
وكأنَّما مُسْتَحْدَثُ الــ أصْباغِ للمُهَجِ الشُّهودْ
شتَّى تحيَّاتِ الكوا كِبِ بِنَّ في حُلَلِ الوُفودْ!

---

[٥] يُشِير إلى الشَّلَّال الأول.

[٦] هو «بطليموس الثاني» أولُ مَن بنى معبدَ «إيزيس».

[٧] التليد: المولود بها من قديم.

[٨] واقع في الجانب الغربي من الجزيرة وهو معبدٌ صغير جميل.

[٩] عُمُد «معبد إيزيس» معدودة من بدائع النَّحْت القديم.

معبد حاتاسو

الدَّيْر البحري

أَبْدَعْتِ معبدَ حُسْنِكِ المعبودِ ... وبَرَزْتِ بالأَحْفادِ قبلَ جُدُودِ!
أنشأْتِهِ ذِكْرَى لبعثةِ نهضةٍ ... وتجارةٍ وفروسةٍ وعَبِيدِ[1]
فإذا به الذِّكرَى لعَصْرِك خالدًا ... وكذا الخلودُ مُصاحبٌ لخلودِ!
ووهَبْتِهِ «لأَمونَ»، وهو مُوفَّقٌ ... لرضائِه المعشوقِ والمنشودِ
يقِفُ البنونَ اليومَ وقفةَ خُشَّعٍ ... متباركِين بحُسْنِه المشهودِ
وتلالُ «طيبة» رانياتٌ قُرْبَهُ ... متدرِّجاتٌ[2] في صفوفِ شُهودِ!
أو أنها نُصبتْ سلالِمَ رفعةٍ ... للشمس تاجِ نفوذِكِ الممدودِ!
ودُعِيتِ أنتِ «الياصبات النيل» لم ... يُنصِفْك مادحُ عصرِكِ المفقودِ!
كانَ المثالَ الفاتِنَ السَّباقَ لم ... يَسْبِقْه مَن جاءوا بكلِّ جديدِ

---

[1] بَنَتِ الملكةُ «حاتاسو» — وهي التي لقَّبَها بعضُ المؤرِّخين «باليصابات النيل» — هذا المعبدَ الوَرْديَّ الصبغة الجميل؛ ذِكْرى لبعثتِها العظيمة إلى بلاد الصومال، ووهبَتْه إلى الربِّ «آمون»، أحدِ أربابِ قُدماء المصريين.

[2] إشارة إلى تدرُّج تلك التِّلال ذلك التدرجَ البديعَ؛ حيث بُنِي المعبدُ في سَفْحِها، فكأنَّها شهودٌ على درجٍ تَرقُبُ جمالَه!

فيه الحضارةُ والثقافة والحِجَى بلغَتْ أعزَّ مراتبِ التأييدِ
ولَوَ انَّ مِن صُوَر «الأسودِ»[٣] بواقِيًا لسألْتُها فرَوَتْ ألذَّ قَصِيدِ!
فكأنما غَنِيَتْ بأعمدةِ العُلَى[٤] الباقيات السامعات نشيدي!
وكأنما هي في قداسة رمزها خُصَّتْ بكل مَظاهِرِ التخليدِ!
أو أنما تصويرُ حُسْنِك شطْرَها[٥] خيرُ الضَّمِين لدائم التجديدِ!
وبزوغُ شمسِك ساطعًا ميلادُها في الرسمِ لا يَرْضَى ظلامَ مُبِيدِ!
ودقائقُ الفن التي لك صَوَّرتْ ما صَوَّرتْ ضمِنَتْ غرامَ وُجودِ!
وكأنَّما طافتْ بمقصوراتِها دنيا فلم أشعرْ بحسٍّ وحيدِ!
وكأنَّما وَرْدِيُّها[٦] بجمالها حُلَلُ الورودِ بدائمِ التعْيِيدِ!

[٣] إشارة إلى طريق الأسود «أو البلاهيب» الذي كان يمتدُّ إلى مدخل المقصورة الأولى، وقد اندَثَرَتْ وزالتْ معالِمُها.

[٤] توجد هذه الأعمدةُ في المقصورة الوُسْطى وفي غيرها، حيث نُقِشَتْ صُوَر الملكة حاتاسو على الجدران.

[٥] هذه صُوَر مستقلة جميلة غير رسم ميلاد الملكة.

[٦] إشارة إلى صبغة المعبد الوردية.

الكرنك

درجَ الزمانُ وأنت حيٌّ تُعشَقُ ... ويُعيدُ رونقَ غائبٍ لك رونقُ![1]
رحلتْ مع البانِين رحلةَ حبِّهم ... رُسُل وما زال السَّنَى بك يَرْمُقُ![2]
ومن العجائب أن يَزُورَكَ عاشِقٌ ... فإذا تألَّق عطفُ حُسْنِك يُطْرِقُ!
تهفُو لطلْعتِك العيونُ وإن تكن ... حَيْرَى يُجاذِبُها الجمالُ المطلَقُ!
وأمامَها دُوَلٌ تُناشِدُها الهوى ... وصحائفٌ تَتْرَى وجيشٌ يُحدِقُ[3]
وجلالةٌ يَعْيَا البيانُ بوَصْفِها ... مُدَّتْ على الأميال وهْي تُحلِّقُ
عجزتْ مصوِّرةُ الشموسِ برَسْمِها ... جَمْعًا، ولم يَظفَرْ نظيمٌ مُشرِقُ![4]
انظر إلى تلك الأُسودِ جَواثِمًا ... حرسَتْ طريقًا للمعابد يُطرَقُ[5]
غَرَسُوا لها الأَشْجارَ عطْفَ بُنُوَّةٍ ... ولَوَ انَّ منها الذِّكرَ حيٌّ يعبقُ![6]

---

[1] إشارة إلى ما تهدَّم وانقرض من آثار الكرنك.

[2] إشارة إلى ما تهدَّم وانقرض من آثار الكرنك.

[3] أجمل ما في آثار الكرنك أنَّها صحائف تاريخية لحروب وعقائد وآداب قُدَماء المصريين؛ لِمَا هو مَسْطُور عليها من البيان الكثير.

[4] إشارة إلى اتِّساع مَدَى هذه الآثار على أميال عدة.

[5] إشارة إلى تماثيل الأُسود (البلاهيب) التي على جانِبَيِ الطُّرُق المؤدِّية إلى المعابد، وقد تهشَّمَ واندَثَر كثيرٌ منها.

[6] إشارة إلى الأشجار المظلِّلة العَطِرة التي غُرِستْ في العهد الأخير لتظليل السُّيَّاح في طريقهم.

ورَمَوْا إلى تظليل مَن وفدوا إلى ... عَلْيائِها وشُموسُها لا تحرقُ
فإذا وفدتَ إلى الهياكل هائبًا ... بدأ النخيلُ مع النَّسِيم يُصفِّقُ!
وأنِستَ للأثَرِ الفخيمِ مُحدِّثًا ... لك عن أعاجِيبِ الذين تفرَّقوا!
وقرأتَ ثم سمعتَ ألْفَ روايةٍ ... عن كلِّ مفخرةٍ لمجدٍ تُعشَقُ
عِبَرُ «الفراعنةِ» الذين تفرَّدُوا ... بالمُلْك واستَعْلَوْا به واستَوْثَقوا
وبَنَوْا «لمصر» من السموِّ مَكانةً ... حتى استعزَّ وجلَّ حُكمٌ مُطْلَقُ!
أينَ الْتفَتَّ تَرَ الفنونَ شواهِدًا ... وتجدْ أحاديثَ الفخارِ تُنمَّقُ
وتَرَ الحروبَ مَوَاثِلًا وكأنما ... أنت الأسيرُ وقد مَضَى بك فَيْلَقُ!
وتَجِدْ «مَسَلَّاتِ» الفَخار مآذِنًا ... و«عمودَ فرعونٍ»[٧] إزاءَك يَنْطِقُ!
ومشاهِدًا لا تَنْتَهي ومعابِدًا ... وهياكِلًا يعتزُّ منها «الجَوْسَقُ»[٨]
وتَرَ «البُحَيْرةَ»[٩] في قَداسةِ سِرِّها ... تترقَّبُ الليلَ الذي هو أَشْوَقُ!
فإذا رجعتَ شهدتَ بين تَخَيُّلٍ ... عجبًا مِن الوَهْمِ الذي يستغلقُ
عصرٌ مَضَى بعجائبِ الدنيا به ... ولنَا به الوَعْظُ الذي هو أَصْدَقُ!

[٧] هو عمودُ المَلِك «تاهاركا».

[٨] وهذا الجوسق أيضًا للمَلِك «تاهاركا».

[٩] هي البحيرة المقدَّسة المعروفة أيضًا «بالبركة المالِحة» وعلَيْها كانتْ قَوارِبُ الآلِهة تَعُومُ حسْبَ معتقداتِ قُدَماء المصريين، ويَدَّعِي العامة أنَّهم يَرَوْن ليلًا مرةً في السَّنةِ سفينةَ الآلِهة الذهبية تختالُ على مياهِها …

الرامسيوم

طَأْطِئْ لمقبرةِ العُلَى إجلالًا ... وامْلَأْ شُعُورَكَ رَوْعةً وجَلالَا
وانظرْ إلى الملك العظيمِ مِثالُهُ ... وهو الصَّريعُ مُخلَّدٌ أجْيالَا
نَحَتُوهُ تِمثالًا لقُوَّتِه فما ... تركَ الزمانَ تَعارُكًا وقِتالَا[1]
وبَنَوْه أضعافَ الحقيقةِ مَظْهَرًا ... وكأنما المثَّالُ لم يتَغالَا![2]
وكأنَّ بُنْيَتَهُ قرينةُ عقْلِهِ ... وكأنما نَحَتُوا حِجاهُ مِثالَا
وإذا التفتَّ إلى دقيق معالِمٍ ... «بالهيكل» المُلْقِي عليك سُؤالًا
لم تستَطِعْ إلَّا الجوابَ بأنها ... مِن مُعجِز الفنِّ الذي يتعالَى!
وإذا أتى الليلُ الكريمُ بزَوْرةٍ ... للبَدْرِ أنْعَشَ نورُهُ الأطْلَالا
فتُحِسُّ أنَّك في زمانٍ سالفٍ ... هَزِجٍ، ولا تَجْدُ الخيالَ خيالًا
وتكادُ تسمع مِن أناشيدٍ بِهِ ... سِحْرًا وتُبْصِرُ موكبًا يتلالا!
وكأنَّ «رمسيسَ» العظيمَ أمامَهم ... وكأنَّما سجَدُوا له إجلالا!
وكأنَّ ما رسموا على جدرانه ... ما كان لا ما قد يُظَنُّ مُحالا
فتَرَى مِن «الأرباب» — وهو تجاههم ... وبنوه — جمعًا لا يُنالُ كمالا[3]

---

[1] إشارة إلى سقُوطِ وتكسُّر التِّمثال العظيم للمَلِك العظيم رمسيس الثاني، ومقامُه في الساحة الأولى للمعبد، ويُظنَّ أنَّ إتْلافَه كان في عهد «قمبيز».

[2] أَلِفُ المدِّ في «يتَغالا» ليستْ من أصْل الكلمة، وإنما هي زائدة مُجاراةً للوزن.

[3] إشارة إلى صورة الملك وأوْلادِه في حَضْرة «الأرباب» وهي المرسومة بالرِّواق.

وتَرَى الوَقائِعَ صادِقاتٍ والوَغَى وتَرَى الرَّدَى، وتُشاهِدُ الأَبْطالا[٤]
وترى «لرمسيسَ» الشُّجاعِ شجاعةً عند الهزيمة تَهْزِمُ الأَقْيَالا[٥]
والجيشُ خاذِلُه وما هو خاذلٌ تاجًا «لمصرَ» فلن يَهابَ قِتالا
فيَخُوضُ في بأسِ الفَرِيدِ ببَأْسِهِ ويردُّ وهْوَ الْمُسْتَمِيتُ نِصالَا
فتظلُّ في حُلْم العيانِ مُثبَّتًا لا تستطيعُ وإنْ أردتَ زِيالَا[٦]
حتى تَرَى «صُوَرَ الزمان» تمثَّلَتْ فيها الشُّهور وأبدعتْ أَمْثالا[٧]
فتعودُ للدنيا الجديدةِ آسِفًا وتفوتُ من مُلْكِ القديمِ جمالا!

[٤] إشارة إلى مَشاهِد الحرب بين المصريين وأعدائهم.

[٥] إشارة إلى خوض المَلِك «رمسيس» الحربَ وحيدًا — حينما خذَلَه جيشُه في إحدى المعارك — وهزيمته للأَعْداء.

[٦] المثبَّت: المستقِرُّ في مكانه. وزِيالا: بمعنى تحوُّلا.

[٧] إشارة إلى الرسم الفلكي لشهور السنة بسَقْف البَهْو الأول الصغير.

خرائب سقَّارة

ظـنُّـوكِ بـعـضَ دَوَارِسِ الأطـلالِ ... وأراكِ مـجـمـعَ ثـروةٍ وجـلالِ
أولستِ للربِّ المعظَّمِ «سِيقرٍ» ... الباعثِ المَوْتى على الأجيالِ؟[1]
ورُموسَ «منفيسَ» العزيزةِ في المَدَى ... تَبْقَى مُعِيدةَ ذِكْرِها الْمُتوالِي؟[2]
نُثِرَتْ حَوَالَيْها الجنانُ، ومثلُها ... أهلٌ مَفاخِرُها لكلِّ جمالِ[3]
ومثالُ «رمسيسَ» العظيمِ بأَرْضِها ... مَثَلُ التَّواضُعِ للسُّموِّ العالي[4]
أو مظهرُ الحاني المُحِبِّ لتُرْبِها ... المُسْتَهِينِ بما يلُومُ القَالِي!
أو أنَّه رمزُ الجريحِ لشَعْبِه ... أو مصرعُ المُتَهالِك المتعالِي!
أو أنَّه يأْبَى النهوضَ كنِدِّهِ ... ماتا مماتَ المجْدِ كالأبطالِ!
وتَرَى «أبا الهول» الصَّغِيرَ[5] مُفاخِرًا ... بكنوزِهِ مُتَحَدِّيًا لزَوالِ!

---

[1] تُنسَب «سقَّارة» إلى الربِّ «سِيقر» من أرباب قُدماء المصريين، وهو الذي يُعنَى في اعتقادِهم ببعْث الموتى.

[2] كانتْ سقَّارة مَجْمَعًا لمدافن مدينة «منفيس» عاصمة المملكة المصرية في عهد الملك مينا أو مينيس أول ملوك مصر.

[3] إشارة إلى جَمال الحقوق الزمردية التي اشتُهرتْ بها هذه المنطقة الزراعية.

[4] إشارة إلى التمثال الغرانيتي الكبير «لرمسيس الثاني»، وقد استُكْشِف بها سنة ١٨٨٨م، ولا يَزَالَ طَرِيحًا بأَرْضِها مُوجِّهًا بصرَه إلى السماء، ويُوجد تمثالٌ آخَرُ لرمسيس الثاني بسقارةَ مصنوعًا من حجر الكلس.

[5] مصنوعٌ هذا المِثالُ لأبي الهول من حجر الألبستر.

يُومِي لـزَوْرةِ «زوْزَرٍ» فـي قَـبْـرِهِ ... متدرِّج الهرم الجميلِ الحالي[٦]
ولِمُبْدِعِ الفنِّ الذي أَخْفاهُ في ... بطْنِ الثَّرَى للباحِثِ الجوَّالِ
فإذا «بِهَيْكَلِهِ» المحقَّقِ شاهدٌ ... عن عصرِهِ بدقائقِ الأعمالِ[٧]
وإذا «بأعمدةٍ» يُحدِّث فنُّها ... عن سَبْقِ أهلِ «النِّيل» للآمالِ
سبَقُوا بها «الإغريقَ» سبْقَ حضارةٍ ... ومهارةٍ وتفنُّنٍ وخيالِ
ومضَوْا وآلافُ السنينَ فواصِلٌ ... ما بين أمسِ مضَى ويومٍ تالِ
ما الذنبُ ذنبُ نُبُوغِهم إنْ يُغْمَطُوا ... الذنبُ ذنبُ الجهْلِ والجُهَّالِ
وبحسْبِ عقْلِك نظرةٌ كشَّافةٌ ... نحوَ «السِّربيومِ»[٨] الخفيِّ الخالِي
لتحارَ في تكوينِهِ وصِفاتِه ... وزوالِ ما أَخْفَى لغيرِ زَوَالِ
فمضتْ ذخائرُه وعُوِّضَ بعدَها ... ذُخْرًا من التفكيرِ والإجلالِ
والذِّكْرُ أكرَمُ من مَتاعٍ زائلٍ ... والحجُّ للإعجابِ رمزُ كمالِ

---

[٦] هرم «سقَّارة» المتدرِّج هو مقبرةُ المَلِك «زوزَر»، والمظنون أنَّه أقدَمُ «الأهرام»، وقد مَضَى عليه في موضِعِه نحوُ ستةِ آلافٍ من السنين.

[٧] يُشِير إلى المُسْتَكْشَفات الأثرية الفنية التي عَثَرَ عليها المستر «مالابي فيرث» على مقرُبةٍ من الهرم المتدرِّج، وبينَها تمثالُ المَلِك «زوزر» ويَرجِع إلى سنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد، وكذلك الأعمدة الفنية البديعة التي سَبَقُوا بها اليونانيين بالآلاف من السِّنين.

[٨] مجموعةُ مقابِرِ العِجْل «أَبِيس» الْمُحيِّرة بسَرَادِيبِها المظلِمة وبكيفيةِ وَضْع قُدماء المصريين للتَّوابيتِ الضخمةِ الثقيلة جدًّا بها، ثم سرقتها فيما بعدُ.

قلعة صلاح الدين

أنصفْتِ آبِيةً «صلاحَ الدِّينِ»[١] وثَبَتِّ رغمَ عواصفِ التَّمْدِينِ
وحرسْتِ «قاهرةَ المعزِّ»[٢] وهكذا مَن يَحرُس التاريخَ جِدُّ ضَنينِ
ومِن الكرامة أنْ يعزَّك فاتحٌ ويلوذَ في حصنٍ لدَيْكِ حصينِ
ومن الجلالةِ أن يُوسَّدَ هانئًا في تُرْبِك «العلويِّ» حُجَّةُ دِينِ[٣]
دينُ النُّهوض بقَدْر «مصرَ» لأمْسِها وعقيدةُ التجديد والتمكينِ
والخالقُ العصرَ الجديدَ كأنما عهدُ «الرَّشيد» به أو «المأمونِ»!
ولَّى وكادَ الملكُ بعد مماتِهِ[٤] لولا تَناجِيه لحبِّ بنينِ!
وحكمتِ سيدةً يَجِفُّ جلالَها مِن مجمع الحاجات كلُّ ضَمِينِ
فكأنَّ عندَك دولةً في ذاتها تعتزَّ بالمصنوعِ والمخزونِ[٥]

---

[١] هو صلاحُ الدِّين الأَيُّوبي الشَّهير: «نابليون الشرق»، وهو الذي بَنَى القلعة.

[٢] بنى القاهرةَ القائدُ «جوهر» قائد الخليفة «المعز» الفاطمي سنة ٩٦٩م.

[٣] إشارة إلى قبر مجدِّد مصر الحديثة «محمد علي باشا».

[٤] قوله: «وكاد الملك بعد مماته»: فيه اكتفاء، ومعناه: وكاد الملك يولِّي.

[٥] إشارة إلى تنسيق القلعة وحيازتها لمتنوِّع حاجياتها، كأنَّما هي مدينةٌ مستقلةٌ فيها جوامع، وقصر، ومستشفًى، وسجنٌ، وثكناتٌ للجنود، ومخزنٌ للذخيرة والسِّلاح، وغير ذلك.

وكأنَّ جامعَكِ العظيمَ فدًى له ... أرواحُ مَن ماتوا مماتَ غبينِ[٦]
ولَوَ انَّهم كانوا الطُّغاةَ وكمْ جَنَوْا ... وعَتَوْا عُتُوَّ جهالةٍ وجنونِ
ذُبِحوا كذَبْحِ الشَّاءِ ذبحَ ضحيةٍ ... ورُمُوا كرَمْيِ الغادِرِ المفتونِ
ومِن القِصاصِ لهم حياةٌ حُرَّةٌ ... للمَوْطِنِ المنهوك والمغبونِ
للهِ! ما أسناكِ! ليلةَ بهجةٍ ... والجامعُ الوضَّاء أُنسُ عُيونِ!
فتَبينُ مئذنتاه حِلْيةَ أرضِنا ... وهما شهابا رَوْعةٍ[٧] وفنونِ!
وكذاك ما أشجاكِ قبل عشيةٍ ... أو في الغروب وفي انعكاسِ شُجونِ!
والزائرُ الرَّاني بسُورِكِ حائرٌ ... ما بين عالَمِ واقعٍ وظُنونِ!

[٦] بُني الجامع العظيم الذي دُفن به «محمد علي باشا» في الموضع الذي وقعتْ فيه «مذبحة المماليك» سنة ١٨١١م، وقد بدأ بإنشائه «محمد علي باشا» نفسه وأتمَّه «سعيد باشا» في سنة ١٨٥٧م.

[٧] روعة: جمال خلَّاب. إشارةٌ عامةٌ إلى ليلةٍ من ليالي الحفلات؛ حيث يُضاء الجامع ومئذنتاه بالكهربائية.

طُور سَيناء

تمتَّعْ من مفاخِرِ «طُورِ سِينا» تَجِدْ برِمالِها مُلْكًا ثَمِينا
وتَصْحَبْ أينَ سِرْتَ جليلَ ماضٍ وتشهدْ في الطريقِ الأوَّلِينا
تَجِدْ فيها «الفراعنةَ» الأَوالِي[1] وتَلْقَ الصالِحينَ «العابِدِينا»[2]
ففي «وادي المغارة»[3] قد أعزُّوا مناجِمَه فلم تبخَلْ قُرونا
يُشِيد بذِكْرِها حَمْدًا «سِمركا» و«خوفو» ما تمثَّل مُسْتَهِينا
و«للرُّومانِ» ذِكْرى ما تقضَّتْ و«دَيْرٌ» باركتْه «كاترينا»[4]
يضمُّ رُفَاتَها بحُنُوِّ أمٍّ ويبعثُ نورُها نورًا مُبِينا
بناه لأختِهِ نَذْرًا جميلا فعاشَ وعاشَ «جستنيانُ» فِينا

---

[1] عَنَى قُدماءَ المصريين «بطُور سيناء» منذ قديم العهد — حتى قبلَ اتحاد المملكة المصرية وتأسيس حكم الأُسَر — نظرًا لِمَا عَرَفوه بها من مناجم النحاس والفيروز.

[2] إشارة إلى رُهْبان دَيْر القِدِّيسة «كاترينا».

[3] هو الوادي المشهور بمناجِمِه المعدنية. وأوَّل مُلوك العائلات الذين عُنوا باستثمار مناجِمِه هو الملك «سمركا» من ملوك الأسرة الأولى.

[4] بَنَى «ديرَ القديسة كاترينا» الإمبراطور «جستنيان» آخِر الإمبراطرة الرُّومانيين الذين حكموا في الشرقِ؛ وفاءً لنذْرِ أختِه «هيلانة» بعد عودتها من زيارة القُدْس سالِمةً، وقد عَثَر الرُّهبان فيما بعد — كما يعتقدون — على جثَّةِ القِدِّيسة «كاترينا» ودَفَنُوها به.

كذاكَ الصالحاتُ لها بقاءٌ وتَطْوِي في جلالَتِها السِّنينا
وما كان اختلافُ الدِّين يَقْضِي على سَعْيِ بَنَى الإحسانَ دِينا
ومن عجبٍ بناهُ بناءَ حِصْنٍ وكان بمظْهَرِ التَّقْوى حَصِينا
ترى فيه «البُروجَ» على «قِلاعٍ» وحولَ بنائِهِ السُّورَ الأَمِينا
وتَلْقَى الجامعَ الرَّاني إليه خَدِينًا صادِقًا صَافَى خَدِينا!
وتحسبُ أنْ أطلَّ عليه «موسى» من «الجبلِ» المُصاحِبِه قَرينا![٥]
كأنَّ الأمسَ حينَ مضَى سَخِيًّا تخلَّف منه ما يَجْلُو العُيونا!
وحولَك من مناظرَ رائعاتٍ فنونًا جَمَّةً تَتْلُو فُنونا!
فتخلع — في ادِّكارٍ واعتبارٍ لها — نَعْلَيْك إذْ تَحْنِي الجَبِينا!
وتنظر للبَوَاسِقِ في رمالٍ يهزُّك هزَّها عطْفًا ولِينا!
وتنظُرُ في مُرورِك دونَ أهلٍ «بواحةِ سِدْرة»[٦] الحسنِ الرَّصِينا
ومن عجبٍ يَضِنُّ له بحُبٍّ أناسٌ لم يكنْ فيهم ضَنِينا!
وكم تلْقَى «نُقوشًا» أو «رُموزًا» على الصَّخْر الأصمِّ رَوَتْ يَقِينا[٧]
«وقبرًا» قِيل فيهِ ثَوَى نبيٌّ[٨] وآخَرَ يكتُمُ السِّرَّ الدَّفِينا
وكم من موطنٍ فيه جمالٌ! وآخَر هيَّأَ الموتَ اللَّعِينا[٩]

---

[٥] بُنِي هذا الدَّيْر بجوارِ «جبل موسى» أو «جبل الطُّور» في الموضِع الذي يُظَنُّ أنَّ النبيَّ «موسى»، عليه السلام، رأَى النارَ، ونزلتْ فيه الآية الشريفة: ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾، وعلى جبل «موسى» هذا خاطَبَ النبيُّ «موسى» الله، جلَّ وعَلا.

والجامِع المشارُ إليه هو المسجد المبنيُّ داخلَ سُور الدَّيْر، وقد بناه «منير الدولة أبو المنصور أنوشتكين» الفاطميُّ، وله آثارٌ وجوامع أخرى صغيرة في «طُور سيناء»، وقد استُدِلَّ على ذلك من الكتابة الكوفية على كرسي السُّورة بالمسجد.

[٦] وصفَ شاهدُ عيان «واحة سدرة» بقوله: «... جذوع نخيلها في الأرض وفروعها في السماء، ومع أنَّ طريقَها شبيهٌ تمامًا بطريق «نيس» الأوروبية الجميلة فإنَّها غير آهلةٍ بالسُّكَّان.»

[٧] هذه النقوش والرموز كثيرة «بطُور سيناء» وهي متنوِّعة اللغات.

[٨] إشارة إلى مقام النبي «هارون» والنبي «صالح»، وغيرهما.

[٩] إشارة إلى المناطق الجبلية المهوبة الخَطِرة، وهي كثيرة «بسيناء».

فشاهدْ ما استطعْتَ بها وحدِّثْ لناسيها حديثَ الخالِدِينا[١٠]
وقل هي بُضْعةٌ من «مصرَ» أحرى بحجِّ الزائرين الذَّاكِرينا!
فلن تَبْقَى ديارٌ نام عنها ذَوُوها واستَهانوا غافِلِينا!

[١٠] رغم تبعيَّتها «لمصر» وجمالِها الطبيعيِّ في فصْل الشِّتاء ووَفْرة ذكرياتها التاريخية ومنزلتها الحربية لا تزال «طُور سيناء» محرومةً من زيارة المصريين لها، ولا تزال قليلةَ السكان.

تمثالا ممنون

قاما شهيدَيْ فخارٍ[1] بانَ صاحبُهُ ... ولم يَنَلْ منهما ذُلٌّ وساحِبُهُ!
ولا تحدَّاهما النسيانُ في زمنٍ ... فالدَّهْر بينَهما يعتزُّ جانِبُهُ!
تهدَّم «الهيكلُ» العاتي وقد بَقِيا ... في جِلْسةِ السائلِ الجاني يُحاسِبُهُ!
ومثَّلَا صاحبَ الفنِّ الذي ندبا ... والدهرُ مثلَهما في التَّوْبِ نادِبُهُ!
إيهًا «أمنفيسُ» لا تجزعْ فما برحتْ ... ذكراك ذكرى السَّنَى المعشوقِ صاحبُهُ
إنْ مَضَّك الدهرُ في غلواءِ نشْوَتِه ... وهزَّ تِمثالَك «الزلزالُ»[2] غالِبُهُ
ففيه فلسفةُ الآسِي لمنشئِهِ ... فكمْ تغنَّى لنُور «الشمس» جاذِبُهُ
وفي «دموع النَّدَى» شعرُ الحنانِ له ... كأنَّها «أمُّه» مالتْ تُداعِبُهُ!

---

[1] تمثالا «ممنون» يمثِّلان في الواقع الملكَ «أمنفيس» الثالث — أحدهما يمثِّله مَلِكًا للشمال، والآخَرُ مَلِكًا للجنوب — وقد بناهما منذ ثلاثة آلافٍ من السنين تقريبًا أمامَ «معبد بيلون» الذي اندَثَر فيما بعدُ اندثارًا تامًّا، وهذا المَلِك العظيم هو أيضًا الباني لمعبد الأقصر.

[2] أصاب التمثالَ الشماليَّ بشقوقٍ زلزالٌ شديدٌ في سنة ٢٧ قبل الميلاد، ومنذ ذلك الوقْتِ لُوحِظ صُدُور نغمةٍ وأزيزٍ منه وقْتَ الشُّروق، مَنْشَؤُه تبخُّر النَّدَى الذي يتجمَّع داخلَه في غُضون الليل. وقد نسبتِ الميثولوجيا اليونانية والرُّومانية ذلك الصوتَ إلى «ممنون» بعد أنْ بعث — في زعْمِهم — بصورة ذلك التِّمثال. و«ممنون» هذا من شُهداء حرب «طروادة» وابن «أورورا» — أو الشفق — فهو بصوتِهِ يُحَيِّي والدتَه، وهي تَجُود عندَ سماعِ صوتِهِ بدُموعها اللؤلئية (الندى) وإلى هذه العقائد الخرافية القديمة يذهبُ الخيالُ الشعريُّ في القصيدة.

حتى اطْمَأنَّا[٣] فعاشَا في سلام هوًى ... فلا «أنينٌ» ولا شَجْوٌ يُصاحِبُهُ[٤]
فعِشْ كذلكَ أنت اليومَ في طَرَبٍ ... وانصِتْ لشَعْبِك فالذِّكْرى تُخاطِبُهُ
ومِثْلُ حُبِّك لن يُطوَى على زمنٍ ... ومِثلُ مجْدِك لن تَخْفَى كواكِبُهُ
أليس من عَجَبٍ أنْ عادَ في بَعَثٍ ... «ممنونُ» في صورةِ «التِّمثالِ» حاجِبُهُ؟!
أليس هذا دليلَ الجذْبِ مِن عِظَمٍ ... يحسُّ صِدْقًا به رانٍ يُرَاقِبُهُ؟!
كأنَّ «طروادةَ» اعتزَّ الشهيدُ بها ... فكافأَتْهُ بإحسانٍ يناسِبُهُ
ولم تَجِدٍ غيرَ شمسِ «النِّيل» مُسْعِدةً ... وغيرَ «طيبة» دارًا لا تُجانِبُهُ
وغير رسم «أمنفيس» يَهَشُّ له ... كلاهما فارسٌ عزَّتْ كتائِبُهُ!
إنْ أَنْسَ لا أَنْسَ فجرَ الصبحِ عن كَثَبٍ ... والنُّورُ قد سالَ سَيْلَ التِّبْر ذائبُهُ!
على روائعِ «تمثالَيْك» في وَهَجٍ ... من فِتْنة النُّورِ كم يَفْتَرُّ ساكِبُهُ![٥]
وللنسيمِ حَفِيفٌ كلُّه وَرَعٌ ... وللطيورِ نشيدٌ لا أُغالِبُهُ!
فكنتُ في موقفِ المذْهُولِ من شَغَفٍ ... بما يَرَى كالذي راقتْ مشارِبُهُ[٦]
كأنَّما كلُّ حسِّي للجمال غدا ... عبدًا، ولكنَّما رقَّتْ مَطالِبُهُ!
فقلتُ: ربَّاه! هل شعبٌ يَمُتُّ كذا ... للفنِّ والعلمِ مَنْ تَهْوِي رغائِبُهُ؟!
وقد شعرتُ بوَحْيٍ هاتِفٍ فجَرَى ... في النفسِ مِن ضَرَمِ الإيمانِ لاهِبُهُ!

---

[٣] أي الشمس والتمثال.

[٤] أُصْلِح التِّمثالُ المشقَّق حوالي سنة ٢٠٠ بعد الميلاد، ومنذ ذلك الوقت انقطع الصوت الذي كان يُسمَع منه في الإصباح.

[٥] ساكبه: يعني الفجر.

[٦] راقتْ مشاربه: عذُبتْ مُيُولُه.

فصلٌ ختاميٌّ

أدبُ العصر بقلم الناظم

أمَا وقدِ اطَّلَع القارئ على شِعْر هذا الكتابِ، فمِن الأمانة أنْ أتحدَّث إليه بكلمةٍ نقْديةٍ في موضوعِه، وببحثٍ عامٍّ وجيزٍ في أدب العصر، وإنْ كان شيءٌ من هذا البحث قد ظهرَ في مجالٍ آخَر إمَّا بقلمي أو بقلم صديقي الأستاذ حسن صالح الجداوي معبِّرًا غالِبًا عن آرائنا المشتركة.

لقد وعدتُ في مقدِّمة الكتاب ببثِّ الرُّوح الفنِّية والرُّوح القومية معًا، كما وعدتُ بمراعاةِ الإيجاز المُجْدِي والسلاسةَ في التعبير، فلنسْتَعْرِض الآن بالنقد — زيادةً للفائدة — قيمةَ هذا المجهود الصغير استعراضًا يشتركُ فيه المؤلِّفُ والمعلِّمُ والطالبُ معًا.

فأمَّا عن الرُّوح الفنِّية فرغمَ الإيجاز الذي لزِمْتُهُ قد حاولتُ بثَّها بلفْتي النظرَ إلى وجهة الجمال في موضوع الوصْف، وبالتصوير الخيالي الذي من شأنِه أن يُنمِّي قوةَ التخيُّل والتصوُّر عند الطالب ويدفَعُه إلى التجرُّد من مألوف الدراسة المادِّية للشِّعر، فيقرأ الشعرَ حينئذٍ بوجدانِه مصاحِبًا الشاعرَ في مشاهِدِه وتفكيره وتصويره، فمِن هذا القَبِيل هذه الأبيات من قصيدة «النيل»:

يجري بماءِ حياتِنا وحياتِهِ فكأنَّما صِرْنا سَرِيَّ نباتِهِ!

من موجِهِ يُوحَى خفوقُ قلوبنا ودماؤنا من لونِهِ وصفاتِهِ
لولاهُ كانتْ «مصر» قَفْرًا قاحِلًا وبه ترى الجناتِ من جناته!
وترى المروجَ يمينَه وشمالَه صُوَر الجمال حنَتْ على مِرآتِهِ
أو كالعساكر في عمائمِ قُطْنه رفعتْ تحيَّتَها على راياتِهِ!

وكذلك هذا البيت من قصيدة «الصحراء»:

تمتدُّ كالأمل الجميل النائي تقسو عليه عواصفُ الهوجاءِ

ثم هذه الأبيات:

ومتى أتى الفجرُ الجريحُ وبعدَه جيشُ الشروق مضرَّجًا بدماء
بزغتْ ذُكاءُ وللسلامِ بُزُوغُها فتُعِيد للأحياءِ نُورَ رجاء
فإذا الرمال من النَّدَى وشعاعِها ما بين دمعِ هَوًى ونارِ حياء!

وليس من قصيدةٍ في الكتاب إلَّا وفيها أمثلة من هذا القَبِيل داعية إلى شحْذ الذِّهْن وتغذية الخيال وحب التصوير الفني، فليس طالبُ الدراسة الثانوية في مستوى الطالب الابتدائي، ولا يجوز أنْ يُناوَل الطالبُ الشِّعرَ بالمِلْعَقة، كما يُقال في الأمثال … وهذه الخُطَّة التهذيبية قدِ اتَّبعها أخيرًا أساتذة الأدب في مدارسنا الثانوية، فشجَّعوا الطلبةَ على دراسة وحفظ الشعر التصويري المُشبَع بالخيال؛ مثل شعر ابن حمديس، وابن خفاجة، ومَن نحا نحوَهما من نوابغ المتقدِّمين، وبذلك انقضى العهد الذي كان يُرغَم فيه الطالب على استِظْهار الكثير من النظيم المتجرِّد من الرُّوح الفنية وآثار الخيال الجوَّال، فلم تكن فيه جاذبيةٌ لطالب الأدب، ولا غذاء نافعٌ لمَلَكته الأدبية، وانْقَضى العهدُ الذي كان يؤَثِّر فيه الكلامُ المرصوفُ المنظوم على الشعر الحقِّ، والأسلوب التقريري الخبري على الأسلوب الخيالي التصويري، والقولُ الساذجُ العاثِرُ على الخيال الجريء الشَّرود، والتبسُّطُ والحشْوُ في التعبير على الإيجاز الجميل، الذي تقوم فيه الكلمة بمقام البيت الكامل، فتُفتِّق ذهنَ الطالب بتشجيع المعلم إيَّاه، وتبعثُ فيه حِدَّة التفكير والتخيُّل.

ومن أمثلة الإيجاز المتناهي الذي يتفوَّق وأحسنَ التخيُّل التقديري في نظري قولُ خليل بك مطران في قصيدته «وقفة في ظلِّ تمثالٍ لرعمسيس الكبير»[1] مُشِيرًا إلى الأُمَّة المصرية وموقِفِها إزاءِ مَلِكِها العظيم ونُصُبِه:

إنْ باتَ في حُجُبٍ باءَتْ إلى نُصُبٍ يلوحُ منه لها معبودُها الجانِي
فبَجَّلَتْ تحتَ تاجِ الملكِ مُدْمِيَها وقبَّلَتْ دَمَها في الْمَرْمَر القانِي

والشاهد كلمة «دمها»؛ فإنَّ معانيَ كثيرةً تنطوي تحتَها[2] كأَنَّما يريد الشاعرُ أن يقولَ إنَّ هذا المَلِك في حياته خُضِّب بدم ضحاياه من المصريين، فلمَّا مات لم يَسْلَم تِمْثالُه من التَّخْضيب، بل انتقل إليه ذلك التخضيب! أو كأنَّما يُريد أن يقول إنَّ دمَه مثل أَزْكى الدِّماء المصرية، وقدْ كان مَفْدِيًّا في حياته، فلم يذهبِ الموتُ به، بل بقِيَ ماثِلًا في تمثالِه تكرِّمه الأمة وكأنَّما تكرِّم دمها؛ لأنَّه كان مَلِكها العظيم الشغوف بعظمتها، الحافظ لقوميتها، وقِسْ على ذلك ما تُؤثِر أنت من التَّقْدِير الخيالي الذي تُشِير إليه هذه الكلمة.

يُرْوَى عنِ امرأةِ كعبِ بن الأشْرَف قولُها لزَوْجها (عندَمَا دعاهُ في الليل الذين يُرِيدون قتْلَه مُظْهِرين الالْتِجاءَ إلى حِصْنه وقد نَهَتْه عنِ الخروج إليهم): «إنَّني أسمعُ صوتًا يَقْطُر منه الدمُ!» ومثل هذا التصوير الرائع الذي قالتْه على الفَوْر سيدةٌ عربيةٌ منذ قُرون قلَّما يَرْضَى عنه بعضُ علماء اللغة في هذا العصر إذا أنتَ أخفيتَ عنهم مَصْدَرَه؛ وما ذلك إلَّا لأنَّهم أبعَدُ الناس عن دراسة الخيال في الشِّعْر، وإنْ كان الشعرُ العربي في عُصور النهضة غنيًّا جدًّا بذلك الخيال،[3] ومع ذلك فهم يتعرَّضون للحُكْم على الشعر بدَلَ الانقطاع إلى تعليم قواعد اللغة وأصولها وتاريخها ... فلا يُرْضِيهم مثلًا أنْ يُقال: «وضرَّجَتِ الحربُ الهواءَ من القَتْلى!» إشارةً إلى فظائع الحرب العالَمية الهوائية بالطَّيَّارات والمناطيد، بينما

[1] مجلة «المقتطف»: ج٢، م٦٤، ص١٣٢.

[2] من قَبِيل البلاغة في الإيجاز كلمة: «تطفله» في قول الشاعِر قديمًا:

بانَ الخَلِيطُ فما أُؤَمِّلُه وعفَا مِن الرَّوْحاء منزِلُه
ما ظبيةٌ أدماءُ عاطِلةٌ تَحنُو على طفلٍ تطفلُه

[3] راجع كتاب «الخيال في الشِّعْر العربي» للأستاذ السيد محمد الخضر حسين التونسي.

هذا التعبير دون نظيره القديم شُرودًا في الخيال، وبينما هو أكثر انطباقًا على العلم؛ لأنَّ الهواء مادة يمكن تضريجها بالدم من وجهة نظرية، بينما الصوت ليس بمادة فيما نعلم، ومِن الظلم أن تُتَّهم لغتنا الشريفة بهذا الجمود، فإنَّما الذنب واقعٌ على تقصير علماء اللغة أنفسِهم في صيانة رُوح اللغة قبلَ هَيْكَلِها، وفي مُراعاة أحاسِن التقاليد الأدبية القديمة، تقاليد الإبداع والإنتاج والافتنان، بينما نعيش في عصر اللاسلكيات والراديوم والإلكترون، وفي زمن المعجزات العلمية التي من شأنها أن تُفسِح المجالَ للغة الخيال ولسَعة التصوير وللابتكار في البيان والتعليل.

وأمَّا الرُّوح القومية فإنَّ بثِّي لها عن طريق اختيار المواضيع ومغازيها، وعن أسلوبِها المصري؛ فقدِ اجتهدتُ في اختيار مواضيع متنوِّعة مرتَبِطة بتاريخ مصر القديم وبحياتها الاجتماعية وبنهضتها الحديثة، فمِن حق الأدب القومي أن نَحفِل بالمواضيع القومية الصميمة، ومهما كانتْ عنايتنا بتاريخ العرب فإنَّ أبلَغَ حفاوتنا بالأدب من حق وطننا علينا، وفي كل موضوع عالَجْتُه حاولتُ أنْ أُظهِر ما يزينه من محامد وذكريات وطنية جليلة، أو صفاته الممتازة الجديرة بإعجابنا وتقديرنا؛ فلا خير في قصر عناية الطالب المصري على بغداد ودمشق وقُرْطُبة، وطُلَيْطِلة، أو في إغفالِه وادِيَ الملوك ومعبدَ حاتاسو وبَقَايا العَظَمة الْمُدْهِشة لمصر القديمة، ومَشاهِد مصرَ الحديثة الناهِضة، وإلَّا ضاع يَقِينًا ركنٌ من أركان التربية الوطنية، وما يُقال عن الموضوع يصحُّ أن يُقال أيضًا عن اللغة، لقد كان زمنٌ يُقرِّر فيه ابنُ جِنِّي[٤] وكثيرون غيرُه «بأنَّ أصلَ اللغةِ إنَّما هو تَواضُعٌ واصطلاحٌ»، وبجواز التَّوْليد، وبإباحة ما يُشاهِدونه «من اختراعاتِ الصُّنَّاع لآلاتِ صنائِعِهم من الأسماء: كالنَّجَّار، والصَّائغ، والحائك، والبَنَّاء، وكذلك الملَّاح»، وكان زمنٌ يقول فيه ابنُ السِّيد البطْلَيُوسي ولا يَخْشَى حَرَجًا في كتابِه «الاقتضاب في شرح أدب الكتاب»: «الدِّيوان اسمٌ أعجميٌّ عرَّبتْه العربُ ... والأصلُ في تَسْمِيتِهم الدِّيوان ديوانًا أنَّ كسرى أمَرَ الكُتَّاب أن يَجْتَمِعوا في دارٍ ويعملوا له حسابَ السَّواد في ثلاثة أيَّام وأعْجَلَهم فيه، فأَخَذُوا في ذلك واطَّلَع عليهم ليَنظُر ما يَصْنَعون، فنَظَر إليهم يحسبون بأسرع ما يُمْكِن ويُحْسِنون كذلك، فعَجِب من كثرةِ حَرَكَتِهم وقال: أي «ديوانه»، ومعناه هؤلاء مجانين، وقيل: معناه

[٤] راجع «الخصائص» لأبي الفتح عثمان بن جِنِّي.

شياطين، فسُمِّيَ موضعُهم ديوانًا واستعملتْه العربُ، وجعلوا كلَّ محصل من كلام أو شعرٍ دِيوانًا» ... وكان زمنٌ يَسْمَح فيه سيبويهِ وتلاميذُه بالأَخْذ عن اللُّغات الأجنبية دون قيدٍ سوى شرطٍ واحدٍ هو الاستعمال، وكان زمنٌ يُقرِّر فيه الإمام التنوخي في كتابه «الأقصى القريب في علم البيان»: إنَّ «البلاغةَ تتعلَّق بالمعْنَى فقط، وهو أن يَبْلُغ المعنَى من نفْسِ السَّامِع مبلَغَه»، ويُقرِّر أيضًا: «أنَّ العنايةَ بالمعنى أعظمُ من العناية باللَّفْظ لِتمامِ غرض المتكلِّم من إفْهام السامع، فلا يَفِي حُسْن اللفظ بما نقص من المعنى، والمعاني، وإنِ اختلفتْ في الجودة والرَّداءة فقد يُرادُ الجيِّد لذاتِه، وقد يُراد الرَّديءُ لذاته، فيَقبُح وضْعُ الجيد في موضع الرديء، كما يَقبُح وضْع الرَّديء في مَوْضِع الجيِّد، ويُمْدَح المؤلِّف باتِّباع المعنى الذي لم يُسْبَقْ إليه — وينبغي أن يُقال الذي لم يسمَعْه قبلَ ابتداعِه — فإنَّ السَّبقَ إلى المعنى يَقِلُّ لكثْرة ما قال الناس: ولا فرقَ بين مَن لم يُسْبَق وبين مَن لم يَسْمَع؛ فإنَّ كلَّ واحدٍ منهما مُبْتَدِعٌ، وإنما ينقص مَن لم يَسْمَع بقِلَّة اطِّلاعه على كلام الناس، ولا يَقْدَح ذلك في قريحته، بل تعظم لذلك» ... مضت تلك الأزمان فإذا بنا قُبَيْل النهضة الأخيرة أمام الدَّاعِين إلى نُكْران ظروف مجتمعنا الحاضر يُطالِبوننا بأنْ نتقيَّدَ بأساليب الأَسْلاف الذين ما كانوا أنفسُهم إبَّان قوَّتِهم وعزَّتِهم يَعْبَئون بالتَّقيُّد، بل كانوا يَنشُدون الحرية دائمًا، وكانوا يعملون على نَمَاء اللغةِ وازدهارِها وزيادة ثروتها بالكثير من المعرَّبات، حتى وإنْ لم يُضطَرُّوا إليها، فكثُرتْ مُترادفاتُهم وفاخَروا بها، وبسَعةِ أساليبهم، وبقابلية اللغة لاجتذاب حَسَنات سواها من اللغات دُونَ أن تَفْقِد هي شخصيَّتَها ومميِّزاتها ... وقلَّما كنا نَجِد أسلوبَ الجاحظ الجميل — الذي هو أسلوبُ الفِكْر والبَدِيهة والفِطْرة المصقُولة — ينالُ مِن التحبيذ قدْرَ ما كانتْ تنال رسائلُ «شمس المعالي قابوس بن وشمكير» المسمَّاة «كمال البلاغة»، وما هي إلَّا أمثلة من التفنُّن السَّجْعي الذي ما كان يستَحِقُّ البَعْثَ ولفْتَ الأنظارِ إليه من جديد.

ثم أشرقتْ شمسُ النَّهْضة الأدبية الأخيرة فإذا علماءُ لغتِنا المتبحِّرون يُدْركون خسارتَنا الجَسِيمة بالاقتصار على ثروةِ الماضي التَّليدة بينَما لدَيْنا آلافُ الكلمات الظَّريفة المصقولة الجميلة ما بين مُشتقَّةٍ ومُعرَّبةٍ وموضوعةٍ، فاختارُوا منها الكثيرَ وأباحُوا استعمالَها، وقامُوا في شجاعة ونشاطٍ مقامَ مجمعٍ لغويٍّ راشِدٍ، وأخصُّ بالذكر مِن هؤلاء السادة الأعلام الأجِلَّاء الشيخَ إبراهيمَ اليازجيَّ، والإمامَ الشَّرتونيَّ، والعلَّامة الأب لويس معلوف اليسوعيَّ، والمحقِّقَ الكبير الأب شيخو اليسوعيَّ، فحَفِظوا في معاجِمِهم ومؤلَّفاتهم النفيسة

الكثيرَ من الألفاظ العصرية القيِّمة، وشجَّعوا الأُدباء على استعمالها وإحيائها، فأصبحتْ شائعةً في أَرْقى أمثلةِ الإنشاء والشِّعْر العَصْري، وصارتْ ممَّا يُستحبُّ؛ لأنَّها دليلٌ على عصرنا الحاضر وعنوانُ أذواقِنا وثقافتنا، وما يُقال عن المفردات يُقال عن بعض الأساليب المستحدَثة، فأصبحتْ غايةُ ما يُطالَب به الأديب المعتدِلُ الغَيُورُ على حُرْمة لُغته أن يُحافِظ على شَرَف دِيباجتِه الإنشائية دون أن يكونَ مُتَطَرِّفًا في تجرُّده أو جامدًا في أسلوبه، وعلى هذا، فكما أصبح دليلًا على البَلادة الذِّهنية أن يتَّهِم القارئُ الشِّعر التصويري الخيالي الجريء بالتعقيد فقد أصبحَ حُجَّةً على الناقِد في تقعُّره أن يذمَّ الأديبَ الذي يمثِّل عصرَه أصدقَ تمثيلٍ في أسلوبه ولغته، مُؤْثِرًا عليه الناظِمَ الصانعَ المتكلِّفَ الذي يَقْضِي السنوات في نَصَبٍ محاوِلًا تقليدَ العربيةِ الأولى، فلا هو يستطيع أن يَمْلِكَ ناصِيَتَها كما يوَدُّ، ولا هو يَخدُمُ الأدبَ القومي كما يجب ...[٥]

---

[٥] كان المرحوم العلَّامة الشنقيطي بالتلقين في موطن رأسِه وبالمُطالَعة بحرًا زاخرًا في اللغة العربية، بل قامُوسًا جامِعًا حيًّا لمُفْرداتها وتاريخها بحافِظَتِه المُدْهِشة النادِرة، ومع ذلك فقد كان عاجِزًا في الإنشاء عَجْزًا بَيِّنًا، وكان لا يتكلَّم إلَّا العربيةَ الصَّميمةَ ولا يَعْرِفُ غيرَها، متطبِّعًا بطَبْعِ البداوة يُجيز ذَوقُه اللغويُّ قولَ الشاعر العربي:

عرِّجْ على حَرَمِ المحبوبِ مُنْتَصِبًا لكعبةِ الحُسْن واعذرني على السَّهَرِ

مع أنَّ هذا التعبيرَ يُخالِف ذوقَ عصْرنا، وإنْ أساءَ شوقي بك بمِثْل ذلك في قوله:

شكرتُ الفُلْكَ يومَ حويت رَحْلِي فيا لمفارقٍ شكر الغرابا
فأنتِ أرحتِنِي من كلِّ أنف كأنف الميتِ في النَّزْع انتصابا!

وفي قوله:

مولاي عبدُك طائعٌ فافعلْ به ما أنت فاعلْ

وفي أمثال ذلك من التعابير، فلم تَنفَع سَعَةُ الاطِّلاع اللُّغَوي، ولا الشُّهرة الأدبية في دفْعِ النقْد وإنصاف الذَّوْق الفني للأدب العصري. وإذن فمِقياس النفع للأدب لا يمكن أن يكون العلم اللُّغوي المحض الذي يُطبَّق دون مُراعاة للظُّروف، أو الذي لا يتيسَّرُ تطْبيقُه، وإنما المِقْياس الصادِقُ هو تمثيل ذلك الأدب

ومن الألفاظ التي تعمَّدتُ استعمالَها لأنَّها من أحسن الألفاظ العصرية البليغة كلمة: «توفَّقتُ» فإنَّها خيرٌ من «وُفِّقتُ»؛ لأنَّ لفظ: «توفَّق» بمعنى «كان مظهرًا لتَوْفيق الله وتسهَّلتْ له طُرُق الخير»، بينما كلمة: «وَفَّق» قاصرةٌ على الدلالة على الإلْهام والهُدَى (راجع «المنجد» للعلَّامة لويس معلوف)، وكذلك استعمالي كلمة: «بساطة» بدل: «سذاجة»؛ فإنَّ الأُولى تُشِير ضِمْنًا إلى البِشْر وغِنى النفس، بينما الثانية ذات تلميحٍ إلى شيءٍ من البَلَه، وتعمَّدتُ التحرُّر من القَيْد العَرُوضي في قصيدة «أبي الهول» كما فعل شوقي بك في قصيدته البيروتية، وما عدا هذه القصيدة فقد حافظتُ جهدَ الطاقة على الأساليب القديمة — خلافًا لنَزْعَتِي ومَذْهبي — في جميع منظومات الكتاب، مكتَفِيًا بالرُّوح المصرية المشبعة بها، وحسبي أنْ أكونَ بذلك قد عبَّرتُ عن عواطفي ونظراتي الوطنية بلغةٍ شريفةٍ يصحُّ أن تُعَدَّ لسانَ الثقافة المصرية الحاضِرة، لا بلغةٍ غريبةٍ عن بيان هذا العصر وذوقه.

لقد قام المجدِّدون الجريئون من علماء لغتنا الفطاحل المعاصِرين رغم تشتُّتِهم مقامَ أكاديمية لغوية، وحَفِظوا أساليبَ البيان ومفرداتِ التعبير لبيئاتنا العصرية، فساروا على سُنَّة السَّلَف الصالح في نشاطِهم وإنتاجِهم وإبداعِهم وزادوا ثروةَ اللغة، وكانُوا أئمةَ الأدباء في صِدْقِ التعبير والبِرِّ بعصْرِهم قبلَ سوالِفِ العُصُور، وهذا الكتاب نتيجةٌ طبيعيةٌ

لبيئته وأثره فيها. وبين كبار أدبائنا الذين يعدُّون خطأً من المحافِظين من يُقرُّوني على هذا الرَّأْيِ وإن لم يَمْلِكوا الشجاعةَ الكافيةَ لإعلانِه خُوْفًا من صَيْحات الرَّجْعِيِّين؛ فهؤلاء الأعلامُ الأفاضلُ يُدْرِكون أنَّ ما وَرِثْناه من اللغة العربية ربما لم يبلُغْ نصفَها، وأنَّ الكثير ممَّا يُظنُّ من الشَّواذِّ ليس شاذًّا، وإنما قد جَنَى عليه النُّسَّاخ بالتَّحْريف والتَّصْحيف، كقَوْلِهم: «امرأةٌ وَحدة» بدلَ: «وَحيدة» «كفريدة وجديدة وسعيدة»، كما يَقْضِي القياسُ، وكجَمْعِهم «جليل» على «جِلَّة» بدل «أجِلَّة» خلافًا للقياس، «كأحِبَّة جمع حبيب ونحوها»، وكذلك يُدْرِك هؤلاء السادة أنَّه لا بد للعامية العربية من أصلٍ في الفُصْحى، وأنَّ نماءَ الفُصْحى أساسُه التَّعْريب والاقتباس من العامية المهذَّبة؛ ولذلك فهم في ضمائرهم يَشْعُرون بأنَّ ترك الوفاءِ لأدب العصر ومحاولة التقيُّد بالماضي البعيد إنما هو عبثٌ في عبثٍ لن يكون له أثرٌ تهذيبيٌّ صالحٌ، وكما أنَّ القاضيَ لن يَقْبَل عذرًا عن كلمة يستَقْبِحها العرفُ باعتبارِ أنَّ أصلَها اللُّغَوي إطراءٌ، فكذلك حكم الأدب على الأدباء المتقعِّرين الذين يَزْدَرون العُرْفَ ومطالبَ بيئَتِهم ويتعثَّرون في تشبُّههم بالماضي، دون أن يَبْلَغوا منه شأْوًا يُذكَر رغم دراسة السنين الطويلة، فيَهابُونَ الإنتاج ويقعدون عن العمل المُجْدي، وهكذا يَخْسَر الأدبُ مواهِبَهم، ولا يكونون قدوةً صالحةً لغيرهم في الإفادة والاستفادة الحقَّة.

لهذه النهضة الأدبية؛ فلُغته إجمالًا لغةُ العصر، ومباحِثُه مفاخرُ الوطن ومظاهرُ حياته، ودِيباجتُه ليستْ مَثَلَ التقعُّر ولا أسلوبَ العامةِ، ونزعةُ الفِكْر والخيالِ فيه هي ثمرةُ اطِّلاعي الطويل على أدبِ الغرب؛ حيث القومية لها المكانُ المُعَلَّى من الإجلال، وحيثُ قضيتُ نصفَ حياتي العملية، فإذا لم أكن أرضَيْتُ به مَن لا يَرْضَوْن عن استقلال الأدب المصري ولو استقلالًا مُقَيَّدًا، ولا يرتاحون إلَّا إلى صميم العربية فلا يَرْضَوْن حتى عن الفيروزابادي، فلعلِّي أنصفتُ به بيئتي ووطني ... ويكفِيني عِوَضًا وجزاءً حَسَنًا أن أشجِّعَ به النقدَ الأدبي وحبَّ البحث الشِّعري في نفوس قارئاته وقارئيه من طلاب الأدب.

أحمد زكي أبو شادي

هنـــداوي